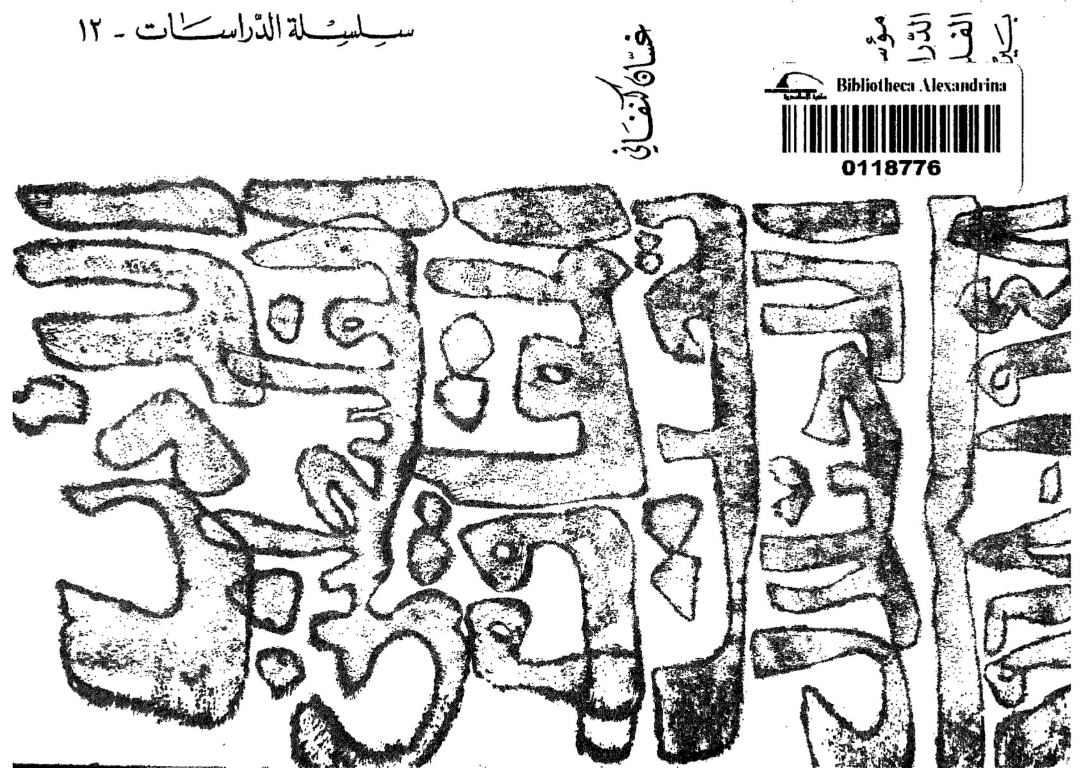


سلسلة الدراسات - ١٢
غسان كنفاني
الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال
١٩٤٨-١٩٦٨
مؤ
الدّرا
الفـ
بـير

الأدب الفلسطيني المقاوم
تحت الاحتلال

١٩٤٨-١٩٦٨

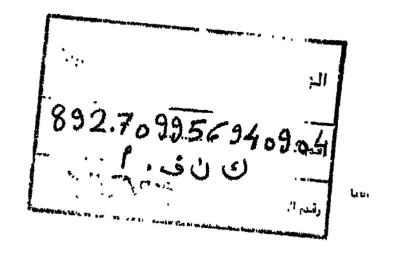
طبع هذا الكتاب على نفقة
الاستاذ عبد المحسن القطان

الطبعة الاولى
بيروت — ١٩٦٨

غسان كنفاني

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال

١٩٤٨-١٩٦٨



مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة

أسست عام ١٩٦٣

(شارع شيلي – متفرع من فردان – بناية هدى حداد)

ص.ب. ٧١٦٤   تلفون ٢٠٠٢٧٨   برقياً : دراسات

غايتها البحث العلمي حول مختلف نواحي حياة الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية بعيداً عن اي نشاط سياسي أو ارتباط حكومي أو انتماء حزبي . وتعبر دراسات المؤسسة عن قناعات مؤلفيها ، وهي لا تعكس بالضرورة حكم المؤسسة أو وجهة نظرها .

---

* – متوفى .

.. إلى أبي

وإلى روح أمي

جناحي المقاومة اللذين حملاني

عبر وعورة الهزائم والمرارة .

غ .

مقدمة

ليست المقاومة المسلحة قشرة ، هي ثمرة لزرعة ضاربة جذورها عميقاً في الارض ، واذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية ، فان البندقية ذاتها تنبع من ارادة التحرير ، وارادة التحرير ليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع : المقاومة على صعيد الرفض ، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف .

ومثل هذا النوع من المقاومة يتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي ، ويشكل هذان العملان المترافقان اللذان يكمل احدهما الآخر الارض الخصبة التي تستولد المقاومة المسلحة وتحتضنها وتضمن استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات .

ومن هنا فان الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أبداً أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها ، وبالتالي فان رصدها واستقصاءها وكشف اعماقها تظل ضرورة لا غنى عنها لفهم الارض التي ترتكز عليها بنادق الكفاح المسلح .

وفي الفترة التي امتدت بين ١٩٤٨ و ١٩٦٨ ، قدم المثقفون العرب في فلسطين المحتلة ، من خلال أقسى ظروف القمع ، والأسر الثقافي ، نموذجاً تاريخياً للثقافة المقاومة ، بكل ما فيها من وعي وصمود وصلابة ، وأهم من ذلك ، بكل ما فيها من استمرار وتصاعد وعمق .

وفي الواقع فان ادب المقاومة — على وجه الخصوص — لم يكن أبداً ظاهرة طارئة على الحياة الثقافية الفلسطينية ، وفي هذا النطاق فان المقاومة الفلسطينية

قدمت ، على الصعيدين الثقافي والمسلح ، نماذج مبكرة ذات أهمية قصوى كعلامة اساسية من علامات المسيرة النضالية العربية المعاصرة .

وحفل التاريخ الفلسطيني ، منذ الثلاثينات على الاقل ، بمظاهر المقاومة الثقافية والمسلحة على السواء ، واذا كانت الثورات المسلحة التي خاضها شعب فلسطين قد انتجت اسماء من طراز عز الدين القسام مثلاً ، فان أدب المقاومة قد أنتج ، قبل ذلك ومعه وبعده ، اسماء من الطراز نفسه ، ما زال المواطن العربي يذكرها بكثير من الاعتزاز ، ومن أبرزها ابراهيم طوقان ، وعبد الرحيم محمود ، وابو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وغيرهم .

ومن هذه الناحية فان أدب المقاومة الفلسطيني الراهن ، مثله مثل المقاومة المسلحة ، يشكل حلقة جديدة في سلسلة تاريخية لم تنقطع عملياً خلال نصف القرن الماضي من حياة الشعب الفلسطيني .

ولكن ما يميز الادب المقاوم في فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٨ هو ظروفه القاسية البالغة الشراسة ، التي تحداها وعاشها ، وكانت الأتون الذي خبز فيه انتاجه الفني ، يوماً وراء يوم .

لقد كان الحصول على نماذج هذا الادب المقاوم صعباً للغاية ، ومن المؤكد الآن ان هناك نماذج لم يتيسر قط نشرها ، ولا نعرف فيما اذا كان من الممكن نشرها خلال الفترة الوجيزة القادمة ، وكذلك فان تراثاً كبيراً من الشعر الشعبي الفلسطيني الذي ولد وترعرع وانتشر في الريف الفلسطيني خلال العشرين السنة الماضية لم يتيسر لنا قط الحصول عليه بالصورة التي تتيح استخدامه لدراسة منفصلة أخرى ، وان كانت الجهود الحالية في هذا النطاق تبشر بامكان ذلك .

في هذا المجال لا بد من الاشارة الى أن البحث التالي ليس طبعة جديدة او منقحة لكتابي الذي أصدرته دار الآداب باسم « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » ، بل يمكن اعتباره الى حد بعيد دراسة مكملة ، خطوة ثانية في هذا النطاق ، ولا يسعني الا أن اشير الى أن الكتاب الاول يعتبر مقدمة ضرورية لهذا الكتاب ، سواء من حيث التحليل او من حيث النماذج .

واذا كان لا بد من الاستطراد في هذه النقطة الشكلية ، ولكن الهامة ، فهناك ملاحظتان لا بد منهما :

الاولى ان معظم النماذج التي اخترناها في هذه المجموعة حرصنا على ان تكون من خارج نطاق النماذج التي باتت متوفرة الآن ، والتي ستطبع في مجموعات شعرية منفصلة خلال الفترة الوجيزة القادمة .

والثانية ان دراسات تحليلية عديدة لأدب المقاومة الفلسطيني ، هي الآن في نطاق الاعداد من قبل اساتذة اختصاصيين في النقد الادبي والبحث ، وهذا هو بالذات ما جعل الدراسة هذه تميل باطراد نحو الصيغة الوثائقية ، اذا جاز التعبير ، أكثر بكثير مما حرصت على الصيغة التحليلية .

وبعد

ان ما يهم هذه الدراسة ، في الاساس ، هو انها تحاول تقديم وثيقة أخرى للادب الفلسطيني المقاوم بعد الوثيقة الاولى التي جاءت قبل ثلاث سنوات في كتاب « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » ، فاذا حققت ذلك فانها لا تطمع الى شيء آخر .

بيروت ١٥ نيسان ١٩٦٨ غسان كنفاني

فهرست المحتويات

الفصل الأول

الوضع الثقافي لعرب فلسطين المحتلة

يقول فوزي الاسمر ، وهو كاتب عربي من فلسطين المحتلة :

«بينما كنت جالساً أتناول وجبة غدائي في أحد المطاعم بتل أبيب، استمعت بالصدفة الى مكالمة تلفونية ، كان المتكلم شاباً عربياً من احدى قرى المثلث ، علمت فيما بعد انها أم الفحم » .

— « آلو ، فاعد هبوعيل[1] ؟ أعطني من فضلك السيد قصاب من الدائرة العربية ، آلو (كل المحادثة بالعبرية) سيد قصاب ؟ مرحبا ، احمد يتكلم ، هل تسلمت رسالتي ؟ انني متأسف جداً ، لقد كتبتها بالعبرية وطلبت من الأخ قاسم ترجمتها للعربية ، متأسف ، لقد أنهيت مدرسة عبرية ثانوية ولا أعرف الكتابة بالعربية لذا طلبت منه ترجمتها » .

ويمضي الكاتب قائلاً :

« مكالمة خاطفة تحمل في طياتها الكثير ، وأنا هنا لا أضع مسؤولية عدم تعلم العربية، لغة أم أحمد على عاتق أحمد وحده بل على عاتق أحمد نفسه ، ألا يخجل من نفسه ؟ اننا لا ننكر ان هنالك محاولة من السلطات لبلبلة الجيل العربي الناهض ، ولكن أين المسؤولية التي تقع على عاتقه هو ؟ انني أتوجه إلى أحمد هذا وكل أحمد آخر في نفس الحالة أن يسارعوا في تعلم لغة أمهم ... والا ... » [2] .

ذلك المقطع يعطي لمحة سريعة ، ولكنها جارحة حتى العظام ، عن نوع فذ من النضال الثقافي الذي يخوضه عرب الأرض المحتلة [3] منذ عام ١٩٤٨ ، للدفاع

---

١ — لجنة العمال .

٢ — فوزي الاسمر ، «هذا العالم» (هعولام هزه) مجلة اسبوعية تصدر بالعبرية، العدد ٣٩ (حزيران ١٩٦٧) .

٣ — من المفيد ها هنا تسجيل احصاءات هامة عن عرب الأرض المحتلة يمكن أن تشكل خلفية البحث القادم ، وتساعد على فهمه ، وهذه الاحصاءات مأخوذة من كتاب «اسرائيل اليوم» من منشورات المستدروت، تحرير يهودا غوثهلف (عام ١٩٦٧) وقد استقاها بدوره من «هامزراح هاحداش» — ص ٢٣) :

عن لغتهم وثقافتهم وتراثهم ، وفي الواقع فان المعركة هذه تمثل واحدة من أبشع وسائل الاستعمار الاسكاني في سحق الحركة الوطنية ومحاولة اجتثاثها من جذورها . وكي ندرك فعلاً ما هي قيمة أدب المقاومة الفلسطيني في فلسطين المحتلة ، من خلال النتاج الذي أعطانا في العشرين سنة الماضية ، لا بد من إدراك حجم المصاعب التي تشكل التحديات اليومية في الحياة الثقافية العربية في الأرض المحتلة .

ثمة اعلان فاضح ، يشكل اعترافاً مثيراً للدهشة ، في هذا النطاق ، على لسان اسرائيلي مثقف ، خلال مناقشة مفتوحة مسجلة . يقول :

« أعتقد ان الكيان القومي هو فوق كل اعتبار ، حتى فوق الاعتبارات الخلقية . ان وجود أقلية عربية في اسرائيل يشكل أكبر خطر عليها ، اذا لم يكن الآن وفي هذا المستقبل ففي المستقبل البعيد ، وحتى نمنع وقوع مثل هذا علينا أن نعمل كل شيء بشكل لا يثير الاحتجاجات العالمية ، علينا أن نجد لذلك غطاء ملائماً وعبارات جميلة ، ولكن اذا لم يكن بد من ذلك ، علينا أن نتجاهل الرأي العام .

علينا أن نقصر خطواتهم ، وأن نأخذ أراضيهم ، كل عربي ينهي المدرسة الثانوية أو الجامعة لا نعطيه عملاً وليبحث عن عمل خلال ثلاث أو أربع أو خمس سنوات حتى ييأس ويفهم انه لا مكان له في هذه البلاد وليبحث عن بلاد أخرى ، علينا أن نقنع العرب بعدم سماع الراديو العربي ، علينا أن نقطعهم عن الثقافة العربية ونضعهم تحت تأثير الثقافة اليهودية .

يوجد حوالي ٣٠٠ الف عربي في الأرض المحتلة (حوالي ١١ بالمائة من السكان) ٦٩ بالمائة منهم مسلمون ، ٢٢ بالمائة مسيحيون ، ٩ بالمائة دروز .

نسبة التوالد بين العرب عالية جداً ، وحسب احصاءات ١٩٦٣ ، كان نصف السكان العرب اعمارهم أقل من ١٥ سنة ، و ٧٥ بالمائة من السكان العرب في اسرائيل تحت سن الثلاثين ، ٢٠ بالمائة تحت سن الأربع سنوات .

ثلاثة ارباع العرب في اسرائيل يعيشون في القرى ، ٦ قرى منها سكانها فوق الـ ٥ آلاف نسمة . يوجد ٢٧ الف عربي في الناصرة ، ٨ آلاف في شفاعمرو ، ٥٩٠٠ في تل أبيب ويافا ، ١٠٧٠٠ في حيفا ، ٧٢٥٠ في عكا ، ٢٥٠٠ في الرملة ، ١٨٥٠ في اللد .

٦٠ الف رجل عربي ، و ٩ آلاف امرأة عربية يشكلون قوة عاملة يدوية في المدن الاسرائيلية .

نصف العرب الذين يعملون كأجراء يعملون خارج مراكز سكناهم .

— وماذا سيحدث اذا ما قرروا الاستمرار بسماع الراديو المصري ؟ واذا لم يفهموا الاشارة ويغادروا البلاد ، ما العمل ؟
— سيفهمون ، وسيهاجرون .
— واذا رفضوا التخلي عن شخصيتهم الثقافية القومية او رفضوا الهجرة ؟
— لا . سيفهمون !
— كن جريئاً وقلها بصراحة : علينا أن نقيم اويشفتز ! » [٤] .

وليس في هذا الجدل تصور نظري ، فهو في الواقع تعبير عن حقيقة تمارس ممارسة يومية ، لقد بات من المعروف « ان المستوى التعليمي في المدارس العربية أضعف منه بكثير في المدارس اليهودية ، وكذلك فصل المعلمين الأكفاء وتعيين معلمين انهوا المدارس الابتدائية فقط مكانهم » [٥] .

ان سياسة التجهيل المتعمد هي سمة بارزة من سمات الاضطهاد الثقافي الصهيوني لعرب الأرض المحتلة ، وفي هذا النطاق تبرز مسألة التعليم وانخفاض مستواه في الوسط العربي كشيء اساسي .

يعترف ز . آران في مقال له بكتاب « اسرائيل اليوم »[٦] : ان « ٥٣ بالمائة من المعلمين العرب في اسرائيل غير مؤهلين » ويقول م. أساف في الكتاب نفسه[٧] : ان « عدم توفر اساتذة وكتب وتخطيط بالنسبة للمدارس الثانوية العربية في اسرائيل يؤدي الى اخفاق كبير في امتحانات الثانوية (المتركيوليشن) » ، وان المجتمع اليهودي لم يستطع « امتصاص المتخرجين العرب من المدارس الثانوية ، ولا طلاب الجامعات العرب » ، وانه يوجد « مشكلة أكبر بالنسبة للعرب الذين يضطرون لترك دراستهم الثانوية » .

ويعترف أساف بأن نسبة تخرج العرب من الجامعات في اسرائيل نسبة منخفضة ، الا انه لا يورد ارقاماً ، ومع ذلك فبوسعنا ان نتصور هذه النسبة حين يصل الى اعتراف

---

٤ — «هذا العالم» ، العدد ٣٨ (ايار ١٩٦٧) . و «اويشفتز» معسكر اعتقال نازي في بولونيا شهد عمليات قتل جماعية بالغاز لليهود .
٥ — شالوم كوهين ، المصدر نفسه .
٦ — غوثهلف ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .
٧ — المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

أخطر في قوله ان مجموع الطلاب العرب في الجامعات في اسرائيل ، عام ١٩٦٧ ، كان ٢٠٠ طالب فقط (مقابل ١٩ الف اسرائيلي) .

وعلى أي حال لدينا احصاء مروّع آخر : « فمن الجيل العربي الذي بدأ التعليم في الصف الأول سنة ١٩٥٧ ، ترك المدرسة ٤٥ بالمائة منهم في سنة ١٩٦٤ ، أي قبل أن ينهوا الصف الثامن » (٨) .

فاذا كان هذا هو الحال بالنسبة للمدارس الابتدائية فان الوضع لا بد ان يكون أقسى بكثير في المدارس الثانوية والجامعية ، فأساف يقول ان ١٠ بالمائة فقط من العرب الذين تقدموا لامتحانات الشهادة الثانوية عام ١٩٦٤ نجحوا ، أما في عام ١٩٦٣ فقد كان الناجحون ١٢ بالمائة (٩) .

ومن الواضح ان هذا الرقم خادع ، ففي حين تقول مصادر أخرى ، ان هذه النسبة لم تكن أبداً أكثر من ٤ أو ٥ بالمائة ، سنرى ان ز. آران يقول ان نسبة نجاح المرشحين لامتحانات الشهادة الثانوية بين العرب في اسرائيل كانت عام ١٩٦٣ ما نسبته ٤٠,٢ بالمائة (١٠) .

ان الذي يثبت خطورة هذه المسألة هو ان أساف ، وآران ، يوردان رقمين متباينين جداً عن نسبة نجاح العرب في الثانوية في اسرائيل ، في سنة واحدة ، في كتاب واحد !

سنجد ، بالاضافة لذلك كله ، وصفاً موجزاً ، ولكن قاطعاً ، للأوضاع التعليمية لعرب فلسطين المحتلة ، يعطي فكرة شبه كاملة عن حقيقة هذه الأوضاع .

تقول منظمة « الارض » في اسرائيل ، في مذكرة بعثت بها الى يوثانت في مطلع ١٩٦٤ (١١) .

---

٨ — أحمد الخطيب ، صحيفة « الاتحاد » (وهي صحيفة بالعربية يصدرها الحزب الشيوعي في اسرائيل) ، تل أبيب ، ٢٩ آذار ١٩٦٨ .
٩ — «اسرائيل اليوم» ، ص ٤٧ .
١٠ — المصدر نفسه ، ص ١٢١ .
١١ — نص المذكرة نشرته كاملا مجلة «فلسطين» — ملحق المحرر — بيروت ، ١٤ كانون الثاني ١٩٦٥ ، وأشارت اليها «المجلة الديمقراطية» صوت القوة الثالثة في اسرائيل في عددها بتاريخ ١٤/٩/١٩٦٤ .

« ان نسبة التعليم المرتفعة في ظل الانتداب انخفضت الى الحضيض خلال الست عشرة سنة الماضية ، ان نسبة النجاح في شهادة المتركيوليشن (باغروت) في المدارس العربية الخاضعة لاشراف وزارة التربية هي فقط ٤ و ٥ بالمائة .

ان هذا الانخفاض يعود الى الأسباب التالية :

١ ــ التدخل المؤذي والوقح في شؤون التعليم من قبل رجال الحكم العسكري والمباحث (شن بت) ، ولهاتين الفئتين ، الحكام العسكريين ورجال المباحث، الكلمة الأولى في اختيار «المدرسين» دون أدنى نظر لكفاءاتهم العلمية ، انهم يختارون بناء على مقدار ما يقدمون من خدمات للحكم العسكري وللمباحث ، ويفترض فيهم أن يكونوا ممالئين ، متواطئين ، وأبواق دعاية للحزب الحاكم .

٢ ــ عدم وجود مدارس كافية ، فبالرغم من الازدياد المطرد في عدد التلاميذ فان عدد المدارس لا زال محدوداً جداً ، ان وزارة التربية تتجاهل عن عمد تنفيذ قانون التعليم الاجباري بالنسبة للأقلية العربية .

٣ ــ النقص الشديد في الكتب المطلوبة والمختبرات والتجهيزات والخرائط والمكتبات .

٤ ــ هنالك بعض الموظفين المسؤولين الذين يستغلون وظائفهم فيقومون بنشر بعض الكتب المتدنية ، هادفين الربح من ناحية ، وتسميم عقلية الجيل الجديد من ناحية أخرى .

هناك خمس مدارس عربية ثانوية في اسرائيل ، واحدة منها فقط (في الناصرة) تدرس العلوم . . . ان سياسة الحكومة السلبية بالنسبة للثقافة العربية ترمي الى محو أي ارتباطات بين الجيل الجديد وبين ماضيهم المجيد ، لتخمد كل مشاعرهم القومية وآمالهم في مستقبل مشرق .

وفي الحقيقة ، فانها تقدم لهم بديلين احلاهما مر : إما الهجرة ، وإما الانصهار ! » .

ان هذا المقطع في مذكرة « جماعة الأرض » ، المتعلق بأوضاع الثقافة العربية ، لا يلخص فقط الوسائل الفاشية التي تتبعها اسرائيل لسحق الوعي الثقافي العربي ، ولكنها تلقي ضوءاً ، من ناحية مقابلة ، على الصمود العربي ، وعلى النضال في سبيل

تفويت هذه المؤامرة .

لقد كانت هذه المسألة محل اهتمام عربي متواصل ومستمر في فلسطين المحتلة ، وهذا الاصرار على رفض خطة التجهيل الاسرائيلية هو الذي يدفع م. أساف ليكتب[١٢] :

« فيما يتعرض الجيل العربي الجديد الى تأثيرات مناوئة لاسرائيل ، فان الجيل الأكبر متمسك بالماضي ، والطرفان ما زالا على صلة يومية بالدول العربية واللاجئين من خلال الراديو والتلفزيون » .

ومع ذلك تمضي اسرائيل عن عمد في حرمان العرب من حق العلم . ومن المعروف أيضاً ان عدة كليات علمية في الجامعات الاسرائيلية محرمة نهائياً على الطلاب العرب ، وهذا ما يدفع محمد دسوقي للتأكيد بأن « التعليم العربي في اسرائيل لا يمكن ان ننتظر منه أية فائدة » ، ويلاحظ ان الكتب ووسائل التعليم والمعلمين الأكفياء غير متوفرين ، وانه يوجد تمييز بين الطلاب العرب واليهود في التعليم العالي[١٣] .

وبعد الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية في حزيران ١٩٦٧ ، لاحظ أحد المربين الفلسطينيين في الضفة الغربية قائلاً[١٤] :

« انني اسمح لنفسي بعد خدمة ربع قرن في التعليم أن أقول ان مستوى المدارس العربية في اسرائيل منخفض جداً ، وان المادة التي يلقنها الأساتذة للطلاب العرب مادة تافهة . لقد طلبت من أحد أقاربي ان يحضر لنا بعض الكتب التي تدرس في المدارس العربية باسرائيل ، واطلعت على بعض الدوسيهات ، وعليه بنيت رأيي ، ان ما يدرس للطلاب العرب ما هو الا نوع من التجهيل (خصوصاً الأدب العربي والتاريخ العربي) وسوف لن نقبل هذه البرامج عندنا » .

وفي نفس المصدر يؤكد أحد المعلمين في القدس العربية الشيء ذاته في حديث آخر : « اذا كانت اسرائيل ترى من واجبها تعليم الطلاب التاريخ الصهيوني فنحن

---

١٢ — «اسرائيل اليوم» ، ص ٤٧ .
١٣ — المصدر نفسه .
١٤ — «هذا العالم» ، العدد ٤٢ (ايلول ١٩٦٧) .

غير مضطرين لذلك. . . لقد اطلعت على قسم من البرامج واعتقد انني سأكون خائناً لقوميتي وشعبي اذا قمت بتدريس هذه البرامج » .

وهذه الحقيقة ، أي خطة التجهيل المتعمد الذي يهدف الى ارساء استعمار من نوع اقتلاعي ، تستدرج بدورها اجراءات قمعية اسرائيلية من نوع آخر ، تتبدى في محاربة المعلمين العرب وتشريدهم ومنعهم من العمل ووضع سوط التهديد على رقابهم .

ففي آذار ١٩٦٧ ، القى اسرائيلي يدعى غديش ، يشغل منصب المسؤول عن التعليم العربي في اسرائيل ، محاضرة في نادي المعلمين في حيفا ، ووجه الى « المعلمين القدامى » الذين دعوا للاستماع اليه تهديداً مباشراً : « على المعلمين القدامى الا يعتقدوا بأنهم ثابتون كالمسمار الذي لا طبعة له ، انا سأعمل للمسمار طبعة ، واذا لم أقدر فسأحفر حوله وأقلعه »[١٥] .

« فالمعلمون القدامى » يشكلون في الواقع جسراً شديد الأهمية في الحياة الثقافية العربية في فلسطين المحتلة ، فهم ضمانة استمرار ذلك التيار من الوعي العربي والاطلاع على مناهج التعليم قبل الاحتلال الاسرائيلي ، ومن هذه الناحية فهم يشكلون بالنسبة لاسرائيل مشكلة يشبهها غديش بأنها مشكلة المسمار الذي لا طبعة له ، بحيث يستحيل استلاله وقلعه من مكانه !

ولا تكتفي السلطات الاسرائيلية بالطبع بهذا الاسلوب « السلبي » في محاولتها لنسف الجذور الثقافية العربية ، ولكنها تلجأ الى اسلوب « ايجابي » مواكب لخطتها ، يتبدى في محاولات حقن المجتمع العربي في فلسطين المحتلة بسموم الثقافة الهجينة ، والتفاهة التي تهدف الى افقاد ثقة العربي بقيمة ثقافته وبآفاقها وجذورها .

ففي كانون الثاني ١٩٦١ وزع منشور عربي في اسرائيل ، أصدره الشيوعيون العرب ، يتهم « شركة الكتاب العربي » التي يشرف عليها حزب العمال الاسرائيلي الموحد (المابام) بأنها « تنزل الى الأسواق ، دون حساب للتكاليف ، مجلات وكتباً

---

١٥ – «الغد» (مجلة بالعربية يصدرها الحزب الشيوعي شهرياً) ، العدد ٢ (آذار ١٩٦٧).

باللغة العربية لا هدف لها سوى اغراق شبابنا في مستنقعات العدمية القومية والعدمية الجنسية »[16] .

وفي الشهر ذاته القى موشيه بيمنته الاسرائيلي ، محاضرة في الجامعة العبرية في القدس بعنوان « اللغة والاسلوب في الأدب العربي الحديث » دعا فيها باصرار الى استعمال اللهجة العامية في الكتابة الأدبية ونبذ العربية الفصحى ونسيانها[17] ، ولم تكن هذه الدعوة الا تكملة لمخطط مقصود ومدروس . فجمال قعوار ، وهو شاعر وكاتب من فلسطين المحتلة ، يكشف هذا في قوله : « كلما حاولت السلطات ان تستخلص أدباً ما من مأجوريها كانت تصطدم بالابتعاد من قبل الأوساط العربية ، لأن مضمونه بعيد عن أية آمال لأبناء الشعب العربي هنا حيث يبث الروح العدمية بين الجماهير العربية ويكبت الروح التقدمية العربية »[18] .

ومثل هذا الصدام الصامت ، ولكن المروّع ، لا يمكن له أن يقف هنا ، وهذا هو التفسير الوحيد لعمليات القمع والاعتقال والاقامة الجبرية ، وأحياناً القتل ، التي يتعرض لها الجيل الشاب المثقف في فلسطين المحتلة .

ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٧ قتل جنود اسرائيليون الشاب العربي محمد خليل الزعبي (٢٨ سنة) من قرية سولم قضاء الناصرة في فلسطين المحتلة ، « كان المذكور قد أنهى دراسته الثانوية منذ حوالي عشر سنوات قضاها في البحث عن عمل ، ولكنه لم يتوفق الى ذلك . . . كما هي الحالة عند معظم الخريجين العرب »[19] .

---

١٦ — «الفجر» (مجلة ادبية سياسية شهرية ، كان يصدرها حزب المابام ؛ توقفت عن الصدور عام ١٩٦٢) ، العدد ٢ السنة ٣ (شباط ١٩٦١) .

١٧ — ناقشه فوزي الأسمر بعنف معتبراً الدعوة وسيلة هدم مقصودة . المصدر نفسه ، ص ٦—٧ .

١٨ — «هذا العالم» ، العدد ٣٦ (آذار ١٩٦٧) .

١٩ — المصدر نفسه . (وعلى سبيل المثال ايضاً : في أواخر ١٩٦١ قتل الاسرائيليون خمسة من الشبان العرب لا يتجاوز أكبرهم الـ ١٨ من عمره ، أثناء محاولاتهم عبور الحدود الى غزة في محاولة لاستكمال دراستهم ، بينهم : ريمون حنا ، وجورج ناصر شاما، وجريس بدين (من وادي النسناس في حيفا) ، وفايز احمد السبع من سخنين) .

وقد قتل الشاب الزعبي من قبل دورية اسرائيلية أثناء محاولته قطع الحدود الى غزة ، و « لم ينشر أي بيان رسمي عن حادث القتل المذكور »[٢٠] .

تقول عريضة « القوة الثالثة » التي قدمها الى المحكمة م. شتين ، رئيس الحركة ، (وكما هو متوقع قوبلت بالاهمال ، وحفظت القضية) :

« وكما يعرف جنابكم (الكلام موجه لهيئة المحكمة) فانه يتبع ضد عرب هذه البلاد اساليب التمييز المختلفة ، وأكثرهم شعوراً بذلك هم المثقفون لأن كل المكاتب الحكومية والعامة مغلقة في وجوههم . . . لذلك لا يستغرب ان يحاول الشاب العربي الذي افتقد كل أمل في الحصول على حياة ملائمة دخول أي بلد عربي ولو اضطر في ذلك الى مخالفة قوانين الدولة وقوانين الدول العربية على السواء » [٢١] .

ومن الواضح ان عمليات قتل من هذا النوع تتكرر بشكل او بآخر ، ويعلن عنها تحت هذا العنوان او ذاك ، ولكن نظرة خاطفة على الانباء العادية لن يكون من شأنها الا ان تثير المزيد من الشك ، وما زال القراء العرب يذكرون النبأ الذي روى قصة مقتل طالب عربي شاب « بعد أن قفز من القطار أثناء اجازته الجامعية قرب الحدود الأردنية فسقط تحت العجلات وقتل ! » [٢٢] .

ولكن عمليات البطش والارهاب لا تقتصر على ذلك ، وهي ليست من ناحية أخرى في حاجة الى اثبات ، ويستطيع القارىء للصحف الاسرائيلية ان يجد كل ما يريده من البراهين مختبئاً هنا وهناك .

فـ « عندما استيقظ الطالب الجامعي يوسف عزيزي (٢١ سنة) صباحاً ليدرس لامتحاناته ، وجد رسالة تهديد تنتظره وهي مرسلة من منظمة سرية لقبها اعضاؤها

---

٢٠ — المصدر نفسه ، ويبدو ان عمليات من هذا النوع تتكرر على نفس الطريقة وعدة مرات ، لأن النبأ استخدم جملة «مقتل شاب عربي آخر» ، والواضح انه لم يكن يحمل سلاحاً .

٢١ — المصدر نفسه . وأيضاً في «المجلة الديمقراطية» ، تل أبيب ، ١٩٦٧/٣/١٢ .

٢٢ — اسمه بدران جميل مشعل وهو من شفاعمرو وقد وقع الحادث في كانون الاول ١٩٦٥ . كشف النقاب فيما بعد انه كان عضواً في «حركة الوحدة العربية» الطلابية السرية ، وقد ذكر انه تعرض لتعذيب وحشي قبل «الحادث» المزعوم — راجع القصة كاملة في «فلسطين» ملحق المحرر — بيروت ، ١٩٦٦/١/١٣ .

بمنظمة ش.ش. ويوسف ، ابن قرية كفركنا ، يسكن في بيوت الطلاب في قرية الجامعة العبرية في القدس ، وقد طلبت الرسالة منه أن يكتب اسمه باللغة العبرية الى جانب اللغة العربية على الوريقة المعلقة على باب غرفته والا . .

« ووصف أعضاء المنظمة المذكورة أنفسهم بأنهم ذوو أياد طويلة ووحشية وقد أعطي يوسف مهلة ليوم واحد لتلبية اوامر المنظمة والا . . » (٢٣) .

وقد يكون هذا النبأ عادياً لو لم نتابع من خلاله كيف لقيت شكوى يوسف المذكور ، الى ادارة الجامعة والى مركز الشرطة ، اهمالاً لا نظير له ، اقترن بالمماطلة والكذب ، ووعده قائد المباحث بأن يتابع المشكلة ولكنه أعطاه رقم هاتف وهمياً ، وكان مدير السكن الاسرائيلي قد هدده بالطرد اذا شكا للشرطة . .

والنهاية التي تتوج هذه القصة وتعطيها معناها هي أن يوسف اضطر بالفعل لترك غرفته بالجامعة ، رغم كل الشكاوى التي قدمها .

انه من السهل الاستنتاج بأن طالباً جامعياً ليس مضطراً لترك دراسته لو لم يكن يعرف بأن « تجارب سابقة » اثبتت خطورة مثل هذه الحالة وجديتها .

ان الحرب النفسية والاقتصادية والسياسية والبدنية التي تشنها السلطات الاسرائيلية على الثقافة العربية والمثقف العربي كان لها الأثر الأكبر في بلورة الانتاج الأدبي العربي في فلسطين المحتلة على الصورة التي سنراها ، ومن ذلك اللجوء غالباً الى الرمز ، ولم يحدث هذا اللجوء الا لأن تفسيره « موجود في أكثر من سجن واحد ، وفي فصل أكثر من معلم عربي واحد » (٢٤) .

وقد وصل هذا القمع في أبشع صوره وأكثرها اتساعاً وقسوة ، في حزيران من ١٩٦٧ ، فقد تلقى مئات من المثقفين العرب اوامر تحديد الاقامة[٢٥] بناء على المادة (١٠٩) من قانون الطوارىء الاسرائيلي والمعمول به بالنسبة للعرب منذ ١٩٤٨ الى الآن.

ولأن المادة (١٠٩) المذكورة تشكل قضية يومية في حياة العرب في الأرض المحتلة ، فانه من الجدير تسجيل نصها زيادة في ايضاح الصورة :

---

٢٣ — «هذا العالم» ، العدد ٤٢ (ايلول ١٩٦٧) .
٢٤ — المصدر نفسه ، العدد ٣٦ (آذار ١٩٦٧) .
٢٥ — المصدر نفسه ، العدد ٤٢ (ايلول ١٩٦٧) .

« المادة (١٠٩) :

١ — يحق للآمر العسكري ان يصدر بالنسبة لأي شخص امراً بخصوص جميع او بعض الغايات التالية :

أ — لكي يؤمن ، ما عدا في الحالات المبينة بالأمر او من قبل سلطة او شخص حسب ما هو مبين بالأمر ، ان ذلك الشخص لن يسمح له أن يكون بأية منطقة في اسرائيل ، كما هو مبين .

ب — ان يفرض عليه الابلاغ عن تحركاته بالطريقة وفي الأوقات وللسلطة او للشخص كما هو مبين في الأمر .

ج — ان يمنع او يحدد ترخيص او استعمال أية أداة من قبل أي شخص كما هو مبين .

د — ان يفرض عليه أية تحديدات كما هو مبين في الأمر بالنسبة لشغله او عمله او بالنسبة لارتباطاته او اتصاله مع اشخاص آخرين وبالنسبة لافعاله بما يخص نشر الأخبار او الدعوة لآرائه ».

مما لا شك فيه ان قانوناً مثل هذا لا يمكن ان يمارس في أعتى دول العالم عنصرية وفاشستية ، ومع ذلك فان قراءة أخرى له تظل ضرورية ، فهدفه ليس الحفاظ على أمن مزعوم بقدر ما هو محاولة لالغاء الانسان .

ان هذه المادة جزء أساسي في حياة عرب الأراضي المحتلة ، وخصوصاً بالنسبة للمثقفين ، ويندر ان تسمع عن أديب أو شاعر أو كاتب عربي في اسرائيل لم يتلق مثل هذا الأمر بين الفينة والأخرى .

وفي الوقت الذي كان عشرات من المثقفين العرب في اسرائيل يتلقون هذه الأوامر في حزيران الماضي (بالاضافة الى مئات من العرب الوطنيين البارزين) كانت دوريات من الشرطة الاسرائيلية تجمع عشرات من الأدباء والشعراء العرب في فلسطين المحتلة ، وتودعهم السجون .

ومن بين أولئك الذين سيقوا الى السجن في مطلع حزيران ١٩٦٧ السادة : منصور كردوش ، وصالح برانسي [٢٦] ، وفخري جدي ، والشاعر حبيب

---

٢٦ — ولد في قرية الطيبة قضاء طولكرم عام ١٩٢٩ ودرس في كلية النهضة بالقدس حيث أنهى دراسته الثانوية فيها عام ١٩٤٧ . من الشباب الذين أسسوا حركة «الأرض»

قهوجي[27] ، والشاعر سميح القاسم ، والشاعر محمود درويش ، والشاعر سالم جبران ، والشاعر توفيق زياد ، والمحامي والكاتب صبري جريس (مؤلف : « العرب في اسرائيل ») ، وعبد الحفيظ دراوشة ، والأديب فرح نور سلمان ، وعلي رافع ، ومحمد خاص ، وعلي عاشور ، والطالب الجامعي خليل طعمة[28] ، ومحمد ريان ، وزاهي كركبي ، ومنعم جرجورة ، ونصري المر ، وجورج غريب ، وفؤاد خوري . . . وغيرهم[29] .

وحين أطلق سراح بعض هؤلاء فيما بعد « ثبتهم » الحاكم العسكري بأوامر تحديد الاقامة ، والاقامة الجبرية !

لقد جدد أمر الاقامة الجبرية على صالح برانسي « وبمقتضاه يمنع من مغادرة بيته في الطيبة بعد غروب الشمس بساعة وحتى شروقها بساعة ، كما ان عليه ، بمقتضى هذا الامر ، ان يثبت وجوده مرة في اليوم في مركز الشرطة في بلدته . . . هذا وقد تلقى البرانسي هذا الأمر قبل سنتين ، وهو ما يزال يجدد كل ثلاثة أشهر»[30] .

وكذلك جددت الاقامة الجبرية على عدد كبير من المثقفين والأدباء العرب في فلسطين المحتلة ، ومن بينهم الشاعر محمود دسوقي ، وصليبا خميس ، والشاعر سالم جبران ، وعثمان ابو راس ، وزاهي كركبي ، وعبد العزيز ابو اصبع ، وهشام

وتعرضوا لملاحقات السلطات المحتلة فترة طويلة . سجن عدة مرات وهو يقيم الآن في «المنفى» داخل اسرائيل ، اقامة جبرية . وله عدة مقالات جريئة .

٢٧ — من عكا ، ومن جماعة «الأرض» ومؤسسيها . له عدة قصائد القاها في مهرجانات تظهر وعياً عربياً جريئاً . لوحق وسجن وأقام فترة في المنفى وفرضت عليه الاقامة الجبرية ، واوقف هو وزوجته توقيفاً كيفياً في حزيران ١٩٦٧ . استمر توقيفه دون سبب حتى أول حزيران ١٩٦٨ ، ثم خير بين ان تنزع جنسيته الاسرائيلية ويطرد الى الخارج وبين ان يبقى في السجن حتى «تحل قضية فلسطين نهائياً» ، فاختار ان يطرد . مقيم الآن خارج اسرائيل مع زوجته .

٢٨ — برز اسمه ، كأحد ممثلي المثقفين الوطنيين العرب في الأرض المحتلة ، مؤخراً ، ألقي القبض عليه بتهمة ايواء المقاوم الفلسطيني أحمد خليفة في بيته ، وكان قد ألقي القبض عليه قبل ذلك أثناء عدوان ٥ حزيران . طالب في كلية الحقوق في الجامعة العبرية ، والأمين العام لمنظمة الطلبة العرب فيها .

٢٩ — « هذا العالم » ، العدد ٤٠ (تموز ١٩٦٧) .

٣٠ — المصدر نفسه ، العدد ٤١ (آب ١٩٦٧) .

حافظ اجاره . . . « ومئات غيرهم » [٣١] .

ولم تكن الاعتقالات هذه جديدة ، كما يظهر بالنسبة للبرانسي ، فنحن نعرف مثلاً ان منصور كردوش وحبيب قهوجي منفيان منذ ثلاث سنوات على الأقل ومفروض عليهما الاقامة الجبرية في القرى المبعدين اليها .

ورافقت هذه الاعتقالات والاحتجازات عمليات عنف وضرب وتعذيب كانت جزءاً مكملاً من المخطط « فبعد نشوب الحرب بيومين (٧ حزيران) أخذت سيارة الشرطة في قرية الطيبة تجوب الشوارع وتنقل بعض الشباب الى المركز لتدخلهم الى غرفة علقت على بابها لافتة كتب عليها « غرفة التأديب » ، وفي هذه الغرفة كانوا يهانون ويضربون ضرباً مبرحاً دون الادلاء بالأسباب . . . لقد ثبت بصورة قاطعة ان الذين كانوا يقومون بالتعذيب كانوا خليطاً من رجال الشرطة وبعض المدنيين الذين ينتمون الى سلك آخر »[٣٢] — (يقصد المباحث العسكرية) .

يصف الشاب خليل طعمة ما حدث له في المعتقل في مطلع حزيران ١٩٦٧ ، وهو صورة لما حصل للأدباء والمثقفين العرب الذين اعتقلوا في الفترة ذاتها ، في تقرير مفصل :

« أمرت أن أغادر القدس في حين كنت أستعد للامتحانات آخر السنة ، الى منطقة قريتي الرامة ، وفي ٥ — ٦ ، أثناء استماعي لأخبار الساعة العاشرة ، دخل الشاويش رقم ١٣٢٢٥ والمعروف عندنا بـ « أبو سرور » وفي يده مدفع رشاش عوزي ، وأمرني أن أذهب معه الى مركز الشرطة في كرمئيل ، وحجزوني حسب المادة (١١١) . أخذوا مني دفتر العناوين ، وفجأة سمعت صوتاً يقول : هذه عناوين ناصر . هه ، سوف نرسلك اليه الآن ، لقد حلت نهايتكم وسوف نحصدكم كما تحصد طائراتنا من القنطرة حتى السويس .

واستمر أبو سرور طيلة يومين في اهانتي ، وكان يكرر دائماً : أريد أن أشرب كأساً من دمك . ويقول : البروفيسوريم البهائم الذين يعلمونكم كيف تكرهون الدولة . . . مارتن بوبر القذر هذا !

---

٣١ — المصدر نفسه .
٣٢ — المصدر نفسه .

ثم أخذوني الى مركز عكا ، وعندما دخلنا وجه ابو سرور حديثه الى بعض أفراد الشرطة الجالسين وقال : انظروا هذا المثقف الذي يدرس الطب كي يسمم الماء في اسرائيل ! وانهى كلامه بلكمة قوية على وجهي مما دفع الآخرين ، وعددهم حوالي عشرة ، ان يهجموا علي وينهالوا ضرباً ولكماً حتى سال دمي ووقعت مغشياً علي ، ومع ذلك فقد صحوت على أبو سرور وهو ينهال ضرباً بحذائه على جميع أعضاء جسمي ، وما تزال علامات الضرب الى الآن (آب ١٩٦٧) واضحة على جسدي » [٣٣] .

ورافق هذا « التعذيب الرسمي » سلسلة من « الاعتداءات الشعبية » ، فقد كاد يهود نثانيا يقضون على قاسم عبد القادر ، وهو مدير مدرسة أبو ربيعة في صحراء النقب حين ظفروا به في الشارع [٣٤] . وقد ظلت هذه المدينة مغلقة في وجوه العرب (وخصوصاً سكان قريتي الطيبة وقلنسوة الذين يعملون فيها) عدة شهور بعد ذلك الحادث .

وربما كانت قصة الشاعر حبيب قهوجي نموذجاً لما يحدث للمثقف العربي في فلسطين المحتلة ، فقد اعتقل في الخامس من حزيران ، ووجهت له تهمة «التجسس» ، وبعد شهور قليلة اعتقلت زوجته ووجهت لها نفس التهمة ، ومع ذلك « فقد اقترحت السلطات الاسرائيلية على الزوجين الاعتراف مقابل السماح لهما بمغادرة البلاد ، الا انهما رفضا الاقتراح بشدة »[٣٥] .

وفي موعد محاكمتهما فوجىء محاميهما بأنهما لم يحضرا ، « وعندما اتصل بالشرطة أبلغ أن الزوجين قهوجي قد اعتقلا لمدة ثلاثة أشهر أخرى بموجب اوامر ادارية»[٣٦] . وقد اشتكى الزوجان أمام اللجنة الاستشارية الخاصة بالاعتقالات الادارية « من

---

٣٣ — «هذا العالم» ، العدد ٤١ (آب ١٩٦٧) .

٣٤ — المصدر نفسه .

٣٥ — المصدر نفسه .

٣٦ — المصدر نفسه .

المعاملة البربرية التي يلاقونها »[٣٧]، ومع ذلك فانه لم يسمح لهما بمقابلة محاميهما قبل انعقاد اللجنة[٣٨] التي لم يغير انعقادها شيئاً .

بالنسبة للأديب العربي في الأرض المحتلة فانه يواجه المسألة بصورة مزدوجة ، يقول سميح القاسم معلقاً على مؤتمر الأدباء العبريين الذي انعقد في القدس المحتلة في ١٧ نيسان ١٩٦٨ :

« قال شيخ الأدباء العبريين يهودا بورلا في كلمة افتتاح المؤتمر : « ان أدباء اسرائيل يعملون على تعميق الوعي القومي والقيم الانسانية لدى الشبيبة ولدى الشعب » ، ولم تطل فرحتنا بهذا الاعلان ، فقد اتبعه فوراً بالدعوة الى « الاعتراف بعظمة هذه الايام التي أعقبت حرب الأيام الستة » ! » .

هذا الجانب من التحدي يقابله جانب آخر يجعل المشكلة مزدوجة ، يتابع سميح القاسم تعليقه :

« . . . وينعقد مؤتمر للأدباء العبريين فلا نسمع كلمة احتجاج واحدة على الاضطهاد الفظ الذي تعرض له ، وما زال ، الأدباء العرب في اسرائيل نفسها . كثير من الكلام قيل حول محاكمة « الأدباء » في « روسيا » ولكن اعتقالنا نحن ، وسوقنا في الشارع مكبلين بالقيود ، والاعتداء على حرياتنا اليومية والفكرية ، كتحديد اقاماتنا واعتقالنا في منازلنا وفرض الرقابة على انتاجنا وطردنا من أعمالنا ومحاولة عزلنا عن الجماهير بموجب القوانين الموروثة عن الاستعمار البريطاني . . . كل هذه الأمور لم تحظ بكلمة واحدة من مؤتمر الأدباء العبريين ذي القدسين ! »[٣٩] .

* * *

هذا الوضع الذي يواجهه الأديب والمثقف العربي في فلسطين المحتلة ، والذي تابع باصرار لا مثيل له تحديه طوال عشرين سنة من الاغتصاب ، هل استطاع

٣٧ — المصدر نفسه ، العدد ٤٢ (ايلول ١٩٦٧) .
٣٨ — المصدر نفسه .
٣٩ — «الجديد» (مجلة شهرية تصدر بالعربية) ، العدد ٥ ، ايار ١٩٦٨ ، حيفا .

ان يزعزع ثقة العربي بجذور ثقافته وآفاقها ، او أن يحول دون شروق الأدب المقاوم الذي يتوهج الآن كشمس متفائلة في الحياة الثقافية العربية عموماً ؟

لقد كان عرب فلسطين المحتلة يدركون منذ البدء خطورة المعركة التي يخوضونها تحت سياط الحكم العسكري الاسرائيلي ، ومنذ البدء عبروا عن وعيهم بالمخطط الموضوع ضدهم باختصار ولكن بعمق ، في جملة موجزة تلخص كل شيء : « كل الناس في العالم يقفون على أقدامهم ، الا الحاكم العسكري فانه يقف على أذنابه ! »[٤٠] .

ولم يكن هذا التعبير ليغطي التحدي السياسي الذي كان يواجهه عرب فلسطين المحتلة ، بل كان يغطي أيضاً التحدي الثقافي المبيت ضدهم ، وأدى وعيهم هذا لحقيقة « التسلل من الداخل » لتسهيل عملية « الضرب من الخارج » الى بلورة أدب المقاومة الذي كان بدوره أيضاً « صموداً من الداخل » لتسهيل عملية « الضرب الى الخارج » .

لقد أدرك أدباء المقاومة العرب في اسرائيل هذه الحقيقة بارتباطاتها السياسية والثقافية المختلفة « فاذا لم نصوت للحزب الحاكم فنحن غير مخلصين للدولة ، واذا كتبنا قصيدة او قصة أو مقالاً تعبر عن واقعنا المر فنحن غير مخلصين للدولة»[٤١] .

وقد أدى ذلك الى تطور في أسلوب التعبير تكيف في الأساس مع متطلبات «جبهة القتال » الثقافية . فقد لجأ الشاعر ، مثلاً ، « لانشاد مقاصده ، شعراً بواسطة الطريقة الرمزية. . . فالقصيدة الشعرية هي ميدان فسيح للكتابة الرمزية ، يعبر فيها الشاعر عما يخالجه من شعور قومي دون أن يفصح عن ذلك ، وكم من مرة خاطب الشعراء أحباءهم قاصدين الوطن، فاذا ما كتب الشاعر في قصيدته « الويل يا ظالم . . » لا يمكن للسلطات ان تعرف قصده لتتخذ ضده الاجراءات القانونية ، أما القارىء اللبق فيفهم مرمى الشاعر ويحس بنفس احساساته » [٤٢] .

---

٤٠ — راشد حسين، «الفجر»، العدد ٢ ، السنة ٣ (كانون الثاني — شباط ١٩٦١) .
٤١ — فوزي الأسمر ، «هذا العالم» ، العدد ٣٦ (آذار ١٩٦٧) .
٤٢ — المصدر نفسه .

ولكن هذا الاندفاع في فتح الطريق أمام الأدب المقاوم لم يحدث بالمصادفة . وليست أهميته في الواقع أكثر من كونه حقق لشعر المقاومة درجة من التقدم الفني أكثر بكثير مما أتيح لفن القصة أو الرواية ، ولكن الحقيقة هي أنه كان في ذاته نتاجاً لوعي عميق بمهمة الأديب والمثقف أمام التحديات الماثلة .

لقد أدت تلك التحديات الاسرائيلية اليومية الى اختصار فترة من طفولة العمل الفني في الأرض المحتلة صرفتها حركة الأدب العربي المعاصرة في مناقشة طويلة حول مدى التزام الفن ، وعما اذا كان الفن الملتزم فناً خلاقاً ، فقد كان ثقل المؤامرة الاسرائيلية على الثقافة العربية في فلسطين المحتلة يشكل من تلقائه حلاً سريعاً لذلك الجدل ، وبكلمة أخرى : لم تكن قضية الأدب الملتزم بين الغالبية الساحقة من أدباء فلسطين المحتلة موضع جدل ، كان الجدل فيها – أمام التحديات اليومية الخطيرة – يشكل رفاهاً لم يقبله أحد .

يقول منصور كردوش ، أحد أبرز العناصر الوطنية في الأرض المحتلة :

« الفن والثقافة سلاحان اذا ما سارا على النهج الهادف رفعا من مفاهيم أمة بكاملها ، أما الفن والثقافة المجردان فباعتقادي انهما من مفاهيم عصور الاقطاع والبذخ والرفاهية السطحية ، ولذلك أرى أن الواجب القومي والاجتماعي والتاريخي لكل من حمل القلم او الفرشاة ، ان يعمل في الاتجاه الهادف كي يكون صاحب رسالة سامية »[٤٣] .

والمثقفون العرب في فلسطين المحتلة ، لأنهم يدركون ان « هناك عوامل تحد من توصيل الثقافة المحلية والخارجية الى عامة الشعب ، منها عدم امكانية النشر ومحاربة النتاج الثقافي الهادف»[٤٤] فهم يدركون بالتالي ان « المجتمع العربي في اسرائيل يقلد المجتمع العربي الكبير في تصرفاته ويستوعب نداءاته أكثر بكثير من تقليد المجتمع اليهودي المجاور »[٤٥]. وقد أدى ذلك – بالطبيعة – الى الاعتماد بعض الشيء على الاذاعات العربية، فهي « تبدد هذه الوحشة على العربي [في اسرائيل] وتخفف من

---

٤٣ – المصدر نفسه .
٤٤ – فوزي الاسمر ، المصدر نفسه .
٤٥ – محمد مصاورة ، المصدر نفسه .

وطأة العزلة المفروضة عليه»[٤٦] . وهي « حلقة الاتصال بيننا وبين ما حجب عنا من انتاج أدبي وثقافي في العالم العربي»[٤٧] . ولذلك فقد أدى « الراديو والتلفزيون العربي ، لنا ، خدمات جليلة»[٤٨] ، الى حد يبدو انه عكس نفسه بقوة على كثير من الانتاج الفني في الأرض المحتلة [٤٩] .

ويبدو أنه ، في الوقت نفسه ، أثار حفيظة الاسرائيليين الى حد بعيد ، فالاسرائيلي سامي ياكوف يقول : « لا أغالي ان قلت ان مصائر قسم لا بأس به من العرب قررت على ضوء تأثير تلك الاجهزة في مشاعرهم وادراكاتهم ، وهذا يقضي بوضع مخطط شامل لتوجيه أبناء الجيل الطالع التوجيه الصحيح ليصبح محصناً ضد تأثير تيارات ليست في مصلحته أبداً »[٥٠] .

ان استخدام هذه المظاهر ، التي وان بدت لأول وهلة انها صغيرة وعابرة ، في نطاق الوعي المسبق لواجبات المثقف العربي في الأرض المحتلة ، قد أفرز حركة أدبية ملتزمة ، انتهت الى أن تكون علامة من أنصع علامات أدب المقاومة الشجاع في التاريخ المعاصر .

وسوف نرى ، بعد قليل ، كيف أن ذلك كله قد استولد وجهين مترافقين لأدب المقاومة الفلسطيني ظلا معاً السمة البارزة والدائمة لهذا الأدب ، وهما وجهه المحلي الصامد ، ووجهه العربي الذي غنى على الدوام للمسيرة العربية معتبراً نفسه ، رغم كل أشكال القمع والحصار والعزلة ، جزءاً منها لا يتجزأ .

* * *

لدينا ، على أي حال ، مثال شديد الأهمية وجدير بالتسجيل لأنه ، كما سنرى ، يعكس الشيء الكثير مما نقصده .

---

٤٦ — سلمان شحادي ، المصدر نفسه .
٤٧ — أحمد دسوقي ، المصدر نفسه .
٤٨ — فوزي الاسمر ، المصدر نفسه .
٤٩ — في مجلة «الفجر» (العدد ٣ — ايار ١٩٦٢) مناقشة حارة بين فتحي فوراني وجمال قعوار ، لأن الثاني اتهم الأول بأن عدداً كبيراً من الالفاظ التي يستعملها في قصصه «مأخوذ من الاذاعات العربية» .
٥٠ — «هذا العالم» ، العدد ٣٩ (حزيران ١٩٦٧) .

لقد أقامت مجلة « هذا العالم » ندوة في مطلع ١٩٦٧ تحت عنوان « مصائب المجتمع العربي » في اسرائيل ، وقد طرحت احدى حلقات هذه الندوة موضوع « تأخر المجتمع العربي في اسرائيل » وطلبت من المثقفين العرب هناك الادلاء بآرائهم عن أسباب تلك الظاهرة .

يعترف رئيس تحرير المجلة بعد تلقيه سلسلة من الردود : « لم نسمع المديح قط ، بل النقد والهجوم ، والخط الأساسي في كل هذه الهجومات كان : « شو دخلكم بهل الموضوع » ، ومنهم من اتهمنا بأن هدف هذه الندوات . . . هو اهانة للمجتمع العربي في اسرائيل . . . وأشغال العرب بمعارك جانبية »(٥١) .

لقد انتهز معظم المثقفين العرب فرصة هذه الندوة ليعبروا عن وعيهم العميق بحقيقة الإشكال الذي يعانونه والذي يتمردون عليه ، لقد رفضت الغالبية الساحقة من المثقفين العرب المشاركين في الندوة طرح موضوع « التخلف العربي » من الزاوية التي يصر الاسرائيليون على طرحه منها ، فالتقدم « لا يقاس بمقاييس الغرام والجنس ، كجلوس شاب وشابة معاً في قاعة السينما »(٥٢) ، وقد وضع معظم المثقفين العرب في فلسطين المحتلة مسألة التقدم والتخلف في سياقها النضالي العميق ، مفوتين الفرصة على الرأي الاسرائيلي الذي يعتقد ان التقدم يبرر استعباد المتخلفين .

ولم تكن هذه الآراء ، في الحقيقة ، الا التربة التي أخصبت بذور الأدب المقاوم في فلسطين المحتلة واحتضنتها بحرارة وأكسبتها المناعة التي أنتجت في المستقبل ثقة بالنفس وبالمستقبل لا حدود لها ، فهي تبرهن ان الالتزام الواعي كسر القشرة البراقة للخديعة الاسرائيلية الفظة ، وفوّت على مزاعم التقدم الاسرائيلي فرصة استقطاب الحركة الثقافية العربية وامتصاصها .

وهذه في الواقع مسألة شديدة الأهمية والخطورة ، فنحن نعرف مثلاً انه في الكثير من الدول النامية فتح المثقفون عيونهم ليجدوا أنفسهم محاطين ببريق ثقافة

---

٥١ — المصدر نفسه ، العدد ٣٨ (ايار ١٩٦٧) .

٥٢ — ادوار طعمة عيسى ، المصدر نفسه .

اجنبية ارادت بوسائل مختلفة التوصل عبر العمل الفكري والفني الى فرض نمط حياة مستوردة ، ومما لا شك فيه ان الكثير من المثقفين هؤلاء ، بين تنازع الجذور المحلية وبريق الثقافة الغربية ، انخلعوا عن جذورهم وولاءاتهم وانتسبوا الى نمط حياة أخرى .

لقد واجه المثقف العربي في فلسطين المحتلة هذا التحدي بصورة أكثر اتساعاً وقسوة ، اذ انه كان وما يزال يمثل حضوراً يومياً مسلحاً بوسائل القمع والاغراء في وقت واحد ، لقد واجه الأديب العربي في اسرائيل ، وهو غالباً رجل شاب قادم من الريف ، سطوة التقدم الغربي وجهاً لوجه ، وبريق النمط الأوروبي من الفكر والحياة ، ليس على صفحات مجلة أو شاشة سينما او سطور كتاب فحسب ، ولكن في تفاصيل الحياة اليومية التي كان يخوض غمارها ساعة فساعة .

ومن هنا كان هذا التحدي يشكل درجة أكثر خطورة وسطوة بالنسبة للمثقف العربي في اسرائيل من أي مثقف آخر في العالم النامي تقريباً ، لقد كان « التقدم » الاسرائيلي يشكل بالنسبة له فخاً له حضوره اليومي ، المعنوي والمادي ، والذي كان يفتح اشداقه حول خطواته باستمرار .

ولذلك فان طرح موضوع « التقدم الاسرائيلي » أمام « التخلف العربي » كان دائماً مسألة لها خطورتها ومحاذيرها ، فقد كان هذا الموضوع يشكل بالبداهة السلاح الاسرائيلي الأقوى — فوق وسائل القمع والارهاب — لمحاولة استيعاب المثقف العربي واستدراجه الى نمط الحياة الاسرائيلية بملء ارادته .

ولكن المثير للدهشة حقاً ان الغالبية الساحقة من المثقفين العرب في فلسطين المحتلة ، الذين سئلوا رأيهم بهذا الشأن ، أبدوا وعياً على درجة عالية من المسؤولية التي يفرضها التزامهم العميق بقضيتهم الأولى ، وقد جاءت الأحداث فيما بعد لتؤكد لعرب الأرض المحتلة صواب موقفهم حتى من الناحية الشكلية ، فبعد عدوان حزيران ١٩٦٧ « تحطمت الفكرة الفاشية التي تحاول دائماً وصم العرب واتهامهم بالتأخر ، تحطمت الفكرة الصهيونية التي تقول بأن العرب في اسرائيل يعيشون على مستوى لم يحصل عليه أي شعب في أية دولة عربية ، وجعلت منهم فترينة للاستهلاك الخارجي . . . كل ذلك تحطم بسرعة البرق بعد ان اطلعنا على مستوى المعيشة في

الضفة الغربية وفي قطاع غزة »[٥٣] .

ومما لا شك فيه ان بناة الستراتيجية الصهيونية فوجئوا بلا ريب بنوع الأجوبة التي أدلى بها المثقفون العرب في اسرائيل على استفتاء « هذا العالم » حول ظاهرة « تخلف المجتمع العربي في اسرائيل بالنسبة للمجتمع اليهودي ، وتقدمه بالنسبة للمجتمعات في الدول العربية » .

لننتبه جيداً الى الفخ المروع الكامن في هذه المعادلة غير المنطقية ، ليس من حيث انها مطروحة على شكل سؤال للمثقفين العرب انفسهم ، ولكن لأنها — قبل ذلك — أحد أهم الأركان التي يقوم عليها الغزو الاسرائيلي للثقافة العربية في فلسطين المحتلة ، ومجرد وجود هذه المعادلة ، مهما كانت نسبة التزوير فيها ، وممارستها عملياً على مدار عشرين سنة من الاحتلال ، يظهران بالبداهة ضراوة المعركة التي يخوضها المثقف العربي في فلسطين المحتلة ، ويظهران ، بالتالي ، القيمة الحقيقية والحجم الحقيقي لادب المقاومة الذي يكتسب ، بالقياس لكل هذه الحقائق ، قامة مضاعفة .

من المفيد في هذا المجال اختيار نموذج للأجوبة يعبر فعلاً عن موقف المثقف العربي ازاء هذه القضية الشائكة ، وسنسجل ها هنا الجزء الأوفر من جواب المؤرخ العربي بولص فرح من حيفا ، الذي سنلاحظ انه انتهز بذكاء فرصة هذا الاستفتاء ليشن حملة على جوانب مختلفة من سياسة القمع الاسرائيلية ، وليقول رأيه ، بشجاعة ، بكثير من القضايا التي لا يمكن ان يقال رأي عربي فيها في المناسبات الأخرى ، وبالتالي يكتسب هذا الرأي قيمة الوثيقة التاريخية التي تشكل علامة اساسية من علامات النضال الثقافي العربي في فلسطين المحتلة .

يقول بولص فرح [٥٤] :

« من أين لنا ان نقدم على معالجة هذا الموضوع ونحن في عزلة تامة ، نعيش بلا صحيفة او كتاب او تقرير او مكتبة تكون مورداً للدرس والتمحيص

---

٥٣ — المصدر نفسه ، العدد ٤١ (آب ١٩٦٧) .

٥٤ — مؤرخ فلسطيني من حيفا ، يعرفه الجميع لأنه من الجيل المخضرم الذي تتلمذ الكثيرون على يديه . يمتلك منطلقات يسارية . جريء للغاية . كتب ابحاثاً سياسية وتاريخية تتميز بقوة المنطق والوضوح والجرأة .

والتدقيق والبحث والمقارنة حتى تكتسب أقوالنا وكتاباتنا طابع العلم . ودراساتنا صفة الدقة . والاجابة العلمية ، هذا اذا سلمنا ان الموضوع علمي أكثر منه شقشقة لسان . أو ترفيهات فكرية مريحة ؟

فضلاً عن ذلك فانه من حق القارىء ان يفهم في اطار التعريف المحدد معنى التقدم والتأخر الاجتماعيين ، ما هي مقاييس التقدم الاجتماعي او التأخر الاجتماعي ؟ أهي مفاهيم أخلاقية او آداب سلوك او كيفية ثقافية أو فلسفة حياتية ؟ أهي السعي لسعادة الانسان ، كل انسان ؟ وكيف تتم هذه السعادة ؟ أفي الملكية العامة لوسائل الانتاج او في الملكية الخاصة ؟ أم هي نظرة داعية لمصير الانسان ؟ للسلم او الحرب ؟ للعنصرية والتمييز او للتآخي والمساواة ؟ بسلب شعب آخر حقوقه او تمكينه من هذه الحقوق ؟

. . . ويلاحظ من خلال نقاش افراد الندوة ان التقدم الاجتماعي ، او الايجابية الاجتماعية ، هو بخروج ابن القرية الى المدينة وتبني ظواهرها ، وتبديل القمباز والجلباب بالبدلة ولعب ابن القرية الورق في المقهى البلدي ، وخروج ابن الناصرة مع صديقته لزيارة السينما ، واذا منع عن ذلك « فهنا تكمن الرجعية » ، على حد قول السيد شالوم كوهين !

. . . أما الأخ الشاب محمد مصاورة فيقرر بشطحة قلم : « ان المجتمع العربي [في اسرائيل] متأخر في تفكيره ومفاهيمه الاجتماعية والنفسية ، والمشكلة في أساسها مشكلة ثقافة » . ومن هذا نفهم ان الثقافة قد تؤخر او تقدّم المجتمع المعين ، فاذا كان المجتمع على مستوى عال من الثقافة كان مستوى تقدمه الاجتماعي عالياً ، اما اذا كانت ثقافة شعب متدنية ، تدنت اوضاعه الاجتماعية .

ونتساءل الآن : اذا كانت الثقافة هي المعيار الذي نتعرف بواسطته على تأخر او تقدم المجتمع المعين ، فهل كان ينقص الشعب الالماني الثقافة عندما نام ضميره على تدمير حياة الملايين في أفران الحرق النازية ؟ ولمَ لم تقم البدلة الافرنجية ، وهي مظهر من مظاهر التقدم الاجتماعي حسب رأي السيد كوهين ، على ردع الفرنسيين عندما اشعلوها حرباً افنائية ضد الشعب

الجزائري ؟ ولمَ لا يقدم الأميركيون المتقدمون تقدماً اجتماعياً كبيراً على وقف افناء الشعب الفيتنامي ؟

أم هذه سياسة ، وتلك اجتماع ؟

من قال انه يمكن للمرء ان يفرق بين الفهم السياسي والنظام الاجتماعي ؟ أوليست الأولى مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ؟

. . . السياسة [في اسرائيل] تعمل على تأخير تطوير العرب الاجتماعي على مختلف انواعه ، لذلك يناهضها العرب ، فهم لا يضحون « بالتطور الاجتماعي على مذبح الهدف السياسي القومي » ، على حد قول السيد كوهين ، بل هم ضحية مخططات اجتماعية ، . . . وهنا تغدو السياسة اجتماعاً واقتصاداً ، والعكس بالعكس .

ماذا نفهم من كلمة مجتمع متقدم ؟ (ألا يعني ذلك) علاقات اجتماعية متقدمة تنفرد بخصائص هادفة الى الخير والعدل والحق ؟ فأين التقدم الاجتماعي اليهودي الذي يتكلم عنه السيد جلعادي ، الذي يتحلى بهذه الخصائص ؟

هل الانجرار وراء عجلة الاستعمار يعتبر تقدماً اجتماعياً ؟ هل تزييف ارادة الأقلية القومية في الانتخابات العامة مظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي ؟ أم نزع ملكية اراضي الفلاحين العرب ووهبها الى المهاجرين اليهود ، وتجميد نشاط زبدة المثقفين العرب واصطناع العملاء يدخل ضمن خصائص التقدم الاجتماعي ؟

فنقطة الانطلاق لأي مجتمع ليست بارتداء البدلة الافرنجية ، فقد ارتدى الأتراك البدلة الافرنجية ، وتبرنطوا ، ولم يغيرهم المظهر وبقوا في عداد الأمم المتخلفة ، وليس (التقدم الاجتماعي) بالسماح بمرافقة الصبيان للبنات الى دور السينما والتواصل الجنسي المبكر . . .

. . . وبعد ، فاني اتهم واضع جدول البحث للندوة بأنه اراد ان يتهرب من الواقع العربي في اسرائيل واشغالنا بمعارك جانبية وبحوث بيزنطية مجردة : عن مكانة المرأة والمهور وايجابية اللباس الافرنجي ومرافقة الصبيان للبنات ،

ونسي ان يذكر ، ان في البلاد لا يوجد ناد ثقافي عربي واحد يعمل . وان في البلاد لا يوجد منظمة عربية واحدة تدافع عن مصالح العرب ، وان في البلاد خوفاً شديداً من رجال المباحث الذين لا ضمائر لهم ، وان في البلاد خوفاً وقلقاً على المستقبل ، وان في البلاد بطالة متفشية بين العمال العرب لم يسبق لها نظير . . . »[٥٥] .

* * *

وسط هذه التحديات التي حاولنا ان نوجزها هنا[٥٦]، كيف قطع الأدب الفلسطيني المقاوم رحلته الصعبة في العشرين السنة الماضية ليصل الى الدرجة العالية التي وصلها الآن ؟ ماذا قال ؟ وكيف قال هذا الذي آمن به ؟ وما هو المستوى الذي حققه في الشكل والمضمون ؟

ان الصفحات التالية هي محاولة لرصد هذا الأدب المقاوم في تطوره الدؤوب والوسائل التي توصل اليها في التعبير ، من خلال الاطار الذي سجلته الصفحات السابقة عن المناخ القمعي الفريد الذي يعيشه المثقف العربي في الأرض المحتلة ، دون فترة انفراج واحدة ، منذ عشرين سنة .

---

٥٥ – المصدر السابق نفسه ، العدد ٣٨ (ايار ١٩٦٧) .

٥٦ – لأخذ فكرة أكثر تكاملا وتفصيلية في هذا النطاق ، راجع الدراسة الممتازة التي وضعها صبري جريس بعنوان « العرب في اسرائيل » والتي ترجمها مكتب جامعة الدول العربية الى العربية ؛ ونشرت بالعربية عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية وبالانكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الفصل الثاني

أدب المقاومة الفلسطيني
ابعاد ومواقف

سامي يقف وحده على خشبة المسرح في مسرحية ذات بطل واحد ، كتبها في الارض المحتلة شاب اسمه توفيق فياض ، انه يتحدث عن كابوس يُلمّ به ، وفجأة يتوقف ، ينظر ناحية الجمهور ويتفحص الجالسين بارتياب ، ويقول مشيراً الى الجمهور باستغراب :

« ماذا ؟ أنتم ؟ الا تزالون هنا ؟ ماذا تفعلون هنا بحق الشيطان ؟ اوه ! يا للغباء ! ظننتم انني سأترك هذا البيت لكم ؟ يا للوقاحة ! منتهى الوقاحة ! كدت أنسى انكم هنا ، كدت انسى تماماً . ما كان علي أن أفعل . يتحتم علي ألا أغفل عن ذلك مطلقاً ، انكم تحتلون بيتي ، تسرقون حريتي ، ودون مبرر ، دون أن يردعكم قانون عن ذلك ، لا . لا . لن أنسى مطلقاً . أعدكم بذلك ، انه لسوء حظكم ، ولكنني سأبر بوعدي » .

ان هذا الخروج المفاجيء من المسرحية العادي ، المليء بثقل كابوس مشوش ومختلط ، يشبه الصدمة الكهربائية ، انه نوع من الاكتشاف يشبه أن تشعل ضوءاً في غرفة مظلمة ، فاذا الامور التي كانت تبدو مشوشة ومختلطة ، تسقط الى وضوح مباشر وصاعق .

مسرحية « بيت الجنون » لتوفيق فياض علامة بارزة في أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، فهي ، شكلاً ومضموناً ، أكثر من صرخة شجاعة ، انها تفسير وموقف ونبوءة ، فالبطل سامي وحده هو بطل المسرحية ، وكلمة « وحده » ليست رفاهاً تكنيكياً في المسرحية ولكنها اعلان عن الموقف بالشكل ، والجمهور الذي يواجهه البطل طرف في صلب المسرحية وحين يقف على مقدمة المسرح يواجه فجأة ظاهرة غريبة فيقول بارتياب :

« لماذا تنظرون الي هكذا ؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة حين أنظر اليكم ؟ او احدثكم ؟ » .

ان سامي ، مدرس التاريخ والادب ، المطرود من عمله ، يعيش في غرفته الصغيرة كابوساً مروعاً . بينه وبين نفسه ، ثمة اختلاط بالامور يأخذ طابع الجنون ، ولكنه

حين يواجه « المتفرجين » تتضح الامور أمامه كأنما بفعل السحر ، ويأخذ حواره مع نفسه طابع الوضوح والمباشرة . والمباشرة هنا ليست ضعفاً في الاداء الفني ولكنها ضرورة لها عمقها الخاص. وفي النهاية ، حين يشعر انه محاصر بالذين جاءوا ليقبضوا عليه بلا سبب ، وبالريح الغربية ، وبالكابوس ، يعلن موقفه كما يلي :

« هناك . . انت . . هل تسمع ؟ انني لا أخافكم ، لا أرهبكم ، سأتحداكم جميعاً ، سأنتصر عليكم جميعاً . . جميعاً ، وحدي » .

ويخرج سامي من الباب ، فيما نسمع صوته يدوي : « وحدي ! » .

ليس سامي الا كلمة المقاومة ، وليست مسرحية « بيت الجنون » الا قصتها ، فهو رجل معزول ، محارب ، ملاحق من الخارج ومن الداخل ، والى حد بعيد مخدوع وممزق ومشوش وشبه يائس ، ولكنه في نهاية المطاف يقاتل وحده ، ولا يخاف ، ويعد ألا ينسى ، وحين يطوف رغماً عنه فوق مد الانسان والظروف وجزرهما ، يعود فجأة الى الرؤيا الواضحة والمباشرة ، ويدق نفسه الى أرضه الحقيقية :

« انكم على حق ، طبيعي أن يضيق المجرم بآثار جريمته ، وطبيعي أن يدفعه ذلك الى ارتكاب جريمة غيرها . حتى يتمكن أخيراً من القضاء على كل ما يذكره بجريمته الاولى » .

انه يدرك ذلك ، ويمضي مرة أخرى فيقول :

« ما كان علي ازعاجكم بمشكلة تخصني وحدي ، لا أدري . ربما كانت تخصكم أيضاً ، بل لا بد وان تخصكم ، انني لم أدعكم الى بيتي » .

ويشير الى إحدى الحاضرات بين الجمهور :

« هل تخصك هذه المشكلة ؟ أعني ، أعني ان تكوني مجرمة ، وان تقضي على كل أثر لجريمتك . اوه ! لم أقصد ، كنت أعني . ان يكون جنينك من صنع حداد ثم ، ثم يميته ؟ طبيعي الا توافقين ! »[1] .

ولكن هذا الانسان الوحيد الذي يواجه منفرداً تحديات داخلية وخارجية ، ويعقد العزم على المضي بمعركته الى نهايتها ، لا يخضع على الاطلاق الى رؤيا مجتزأة أو

---

١ — «بيت الجنون»، مسرحية بقلم توفيق فياض، اقرأ نصها الكامل في ملحق «الانوار» الاسبوعي ، العددين ٢٤٥٥ ، ٢٤٦١ (١٣ و ٢٠ /٨/١٩٦٧) .

مصغرة ، فسامي نفسه ، بطل « بيت الجنون » ، يتوصل في نهاية المطاف الى موقف مدرك لجميع أبعاد مسألته ، وهو ، وان كان يعدُّ المشاهدين بألا ينسى على الاطلاق انهم اقتحموا بيته ، ويعتبر أن هذا الاقتحام يلقي على أكتافه مهمة عاجلة ، الا انه لا يخدع نفسه باجتزاء مشكلته على هذه الصورة ، وهو يرى — بالرغم من تشوشه وثقل الكابوس المباشر الذي يجثم فوق رأسه — الابعاد الاخرى لقضية الاقتحام هذه ، ويشير اليها ببراعة متلمساً حدودها المحلية والعربية والعالمية والاجتماعية ، أيضاً .

ان أدب المقاومة في فلسطين المحتلة يتميز بهذه الرؤيا العميقة ، ولذلك فهو يقاتل على أكثر من جبهة ، وسيكون من المدهش حقاً أن يرى الدارس ، في انتاج أدباء الأرض المحتلة ، ادراكاً مبكراً ، عبر الشعر والقصة والمسرحية ، لكثير من معطيات الموقف الذي اكتشفه الادباء العرب او على وشك ان يكتشفوه في مختلف البلاد العربية ، على العموم ، في أعقاب ٥ حزيران ١٩٦٧ .

سنرى فيما يلي أن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة قد ربط ربطاً محكماً بين المسألة الاجتماعية والمسألة السياسية ، واعتبرهما طرفين من صيغة لا بد من تلاحمهما ، لتقوم بمهمة المقاومة. وقد مضى ذلك الادب الى أبعد من هذا ، حين أدرك في وقت مبكر أيضاً الترابط العضوي بين قضية مقاومة الاحتلال الاسرائيلي وبين قضايا التحرر في البلاد العربية وفي العالم ، وعلى هذه الجبهات جميعها ، بكل تعقيداتها ، خاض أدب المقاومة في فلسطين المحتلة معركة التزاماته .

لقد اخترنا مثال « بيت الجنون » كنموذج للبساطة الاصيلة التي تتم فيها عملية الربط المعقدة التي أشرنا اليها ، فبطلها الوحيد ، الذي تتنازعه تحديات متعددة ، يعود بين لحظة وأخرى ليثبت تلك التحديات جميعها حول محور واحد ، هو المواجهة المباشرة مع التحدي الاسرائيلي الأثقل . وبالتالي تغدو كل التحديات المذكورة مربوطة الى ذلك المحور بجاذبية لا فكاك منها ، ولكنها جاذبية ليس من شأنها الا توضيح أبعاد النزال .

ان هذا الواقع الذي تبلور من تلقائه ، خلال تطورات متداخلة ، قد أدى بدوره الى ظاهرة هامة ينبغي ملاحظتها ، فالغالبية الساحقة من أدباء المقاومة في فلسطين المحتلة يمدون التزامهم الى ما هو أبعد من الحدود الفنية ، انهم منتسبون فعلاً

الى الحركة الوطنية بصورة او بأخرى ، ويناضلون من خلال تنظيماتها ، ويذوقون ، في سبيلها ، نتائج سياسة القمع الاسرائيلية، لقد بات معروفاً – مثلاً – ان الشاعر محمود درويش قد اودع السجن مراراً ، وان الشاعر سميح القاسم قد ذاق بدوره مرارة الأحكام العسكرية . وقد مارست الحكومة الاسرائيلية ضغطاً متواصلاً على شركة أهلية لتطرد من بين موظفيها الشاعر فوزي الاسمر بسبب شعره ، ونضاله السياسي معاً[٢]، وتعرض الشاعر توفيق زياد الى الطرد من وظيفته ، وكذلك توفيق فياض ، وغيرهم .

ولكن سياسة القمع هذه لم تؤد الى أية نتيجة سلبية ، وفي الواقع فان شاعراً مثل محمود درويش قد جدد رؤياه وطور اداءه بصورة مذهلة خلال وجوده في السجن ، وكذلك فعل سميح القاسم. وأدت سياسة القمع الاسرائيلية ، التي غالباً ما كانت تغطي نفسها بمحاولات لتفتيت المجتمع العربي في الارض المحتلة ، وتأليبه على بعضه ، الى ادراك متزايد للوجه الاجتماعي في حركة المقاومة . وقد انعكس هذا ، بصورة خاصة ، على القصص القصيرة التي تعاملت أولاً مع قضايا التقاليد الكابحة داخل المؤسسة الاجتماعية العربية ، ورفضتها ، في سبيل تجديد دماء المجتمع العربي ليكون قادراً على مواصلة مسؤوليات المقاومة ، والمضي فيها الى مداها ، وانعكست أيضاً ، وغالباً ، في شعر الشعراء الشبان مع مطالع تجاربهم . وأي رصد لهذه التجارب سيؤدي الى ملاحظة موحدة تقريباً ، وهي أن الشاب يبدأ تجربته غالباً برفض القيود التي يفرضها المجتمع الريفي على علاقات الرجل بالمرأة ، او الأب بالابن ، الا أن هذا الرفض ما يلبث ، وبصورة متسارعة ، أن يأخذ أبعاده وأعماقه ، ويتوصل الى الارتباط بآفاق التحدي المختلفة التي تواجه المواطن العربي في الأرض المحتلة ، ليخرج من ذلك كله بالصيغة النهائية الراهنة ، وهي إعطاء أدب المقاومة بعده التقدمي ، الاجتماعي ، العربي ، والعالمي .

وحين يتصفح الناقد شعر محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما ، في أوائل

---

٢ – راجع جريدة «المرصاد» التي تصدر في اسرائيل (١٩٦٦/٦/٢) ؛ نشر الخبر تحت عنوان «راسكو تقيل الموظف العربي الوحيد فيها» مشيراً الى ضغط الحكومة على الشركة لاسباب تتعلق بنشاط فوزي الاسمر الثقافي والسياسي .

عهد هؤلاء الشعراء بنظم الشعر ،يلحظ ذلك بصورة واضحة ،فشعر هؤلاء لا يتصف فقط برفض عصبي لظاهرة اجتماعية محدودة ، ولكنه يتصف أيضاً بضعف مثير للدهشة في بنائه الفني .

لسميح القاسم مثلاً ، في أواسط الخمسينات ، قصائد رومانطيكية عن المرأة ، ذات أفق محدود وموقف جزئي وضعف فني ملحوظ. ولكنه، بعد سنوات قليلة ، يسوي بناءه الفكري والفني بصورة فريدة ، نلحظها في قصيدته « أنتيغونا » ابنة أوديب الشهيرة :

خطوةٌ ، ثنتان ، ثلاثْ
أقدم أقدم
يا قربانَ الآلهةِ العمياءْ
يا كبشَ فداءْ . .
في مذبحِ شهواتِ العصرِ المظلمْ
خطوةٌ ، ثنتانِ ، ثلاثْ
زندي في زندِك
نجتازُ الدربَ الملتاثْ !
يا أبتاهْ !
ما زالت في وجهِك عينان
في أرضِك ما زالت قدمان
فاضربْ عبرَ الليل
بأشأم كارثةٍ في تاريخِ الانسان
عبرَ الليلِ ، لنخلقَ فجرَ حياة
يا أبتاه !
أن تسمل عينيك زبانيةُ الأحزان
فأنا ملءُ يديك
مسرجةٌ تشربُ من زيتِ الايمان

وغداً يا أبتاه أعيدُ اليك
قسماً يا أبتاه أعيدُ اليك
ما سلبتك خطايا القرصان
قسماً يا أبتاه !
باسمِ الله وباسمِ الانسان . .
خطوة ، ثنتان ، ثلاث
أقدم . . . أقدم

وسيعطينا محمود درويش مثالاً أوضح على هذا التطور النوعي ، الذي ينمو من تلقائه من خلال الممارسة الفعلية للمقاومة .

ففي أواخر الخمسينات يأخذ غضب محمود درويش ، شكلاً ومضموناً ، الوضع التالي حين يشكو من عسف التقاليد التي تلحق الاذى بالفتاة التي يحبها :

وتنامُ أجفانُ الحياة
الا بكاء من كئيبٍ موجع
ينسلّ من اعماقِ بيتٍ
من بيوتِ القريةِ
هي بنت شيخِ القريةِ
تبكي وتصرخُ باكتئابْ
والسوطُ محمرّ الاهابْ

ولكن لنلحظْ ، بعد سنوات قليلة ، تلك القفزة التي لا تصدق يقوم بها الشاعر نفسه ، منتقلاً من ذلك الضعف الفني الملحوظ والتصدع في المضمون ، الى درجة عالية جديدة :

لقد تعوّدَ كفي
على جراحِ الأماني
هزي يديّ بعنفِ

ينسابُ نهرُ الاغاني
يا أمَّ مُهري وسيفي . .
يداكِ فوق جبيني
تاجانِ من كبرياءْ
اذا انحنيتُ انحنى
تلٌّ وضاعت سماءْ
ولا أعودُ جديراً
بقبلةٍ أو دعاء
والبابُ يوصدُ دوني !

على يديكِ تصلّي
طفولةُ المستقبلْ
وخلفَ جفنيكِ طفلي
يقولُ : يوميَ أجمل
وأنتِ شمسي وظلّي

إن هذه الظاهرة شائعة بصورة تشبه القاعدة ، وراشد حسين يتطور على طريقته الخاصة ضمن هذه القاعدة ، ففي قصيدة له في أواخر الخمسينات يغازل فتاته بالصورة التالية :

ونمرّ في أطيانكم يوماً فيصدفنا أجيرْ
قذرُ الثيابِ ، فتبصقين على التّراب
فأحس في عينيّ إعصارا
وفي بدني سعير
وأقول : يا بنتَ الامير !
أنا كلّ شعري للاجير

وبعد سنوات قليلة سيقفز راشد حسين بدوره قفزة لافتة للنظر في الشكل والمضمون على السواء ، ففي قصيدته « الجياد » يأخذ غضبه ورفضه الصيغة التالية :

في قُرانا بينَ طياتِ الدخانِ
يكبرُ الطفلُ لكي تكبرُ بالطفلِ التهاني
ليقولوا : أصبحَ المحروسُ حلماً للحسانِ
أو عريساً صارَ ، في سنّ الزواج
ابن فلان
واذا جيلٌ من العرسانِ يجتاحُ بلادي
جيلُ اطفالٍ كبارٍ ، كالجيادِ
ملأتْ أذهانَهم أشباحُ تفكيرٍ رمادي

ويمضي يقول ، عن الناس :

همّهم أن تلدَ الزوجةُ مولوداً ذَكَرْ
ليقولوا : « إنها بنتُ أصيل مفتخرْ
وضعتْ طفلاً ذَكَرْ
وجهُهُ وجهُ القمرْ
ليقولوا : زوجُها فحلٌ عظيمْ
رجلٌ . . »
بعد هذا ، ليصيرَ ابنُهُمُ راعي ذباب

في الخمسينات سنقرأ شعراً كثيراً ، في الأرض المحتلة ، يركز تركيزاً متواصلا على قطاع ضيق من الإشكال الاجتماعي ، وفي هذا النطاق ترد أسماء القاسم والدرويش وحسين ، وكذلك فهد أبو خضرة (وهو شاعر موهوب وصاعد لم نعد نسمع عنه) ، وأحمد حسين ، وعصام عباس ، وابراهيم مؤيد ، وغيرهم كثير .

ولكن بعد ذلك بعدة سنوات سيأخذ ذلك التنبه الجزئي آفاقه الأبعد وأبعاده الأعمق ، ففي ذلك الوقت المبكر كانت الكارثة الفلسطينية ما تزال حارة ، وكان

الغضب المجرد ، بصورة فاجعة ومذهلة ، يطفو الى السطح ، شأنه في ذلك شأن ما حدث في أعقاب ٥ حزيران ١٩٦٧ في البلاد العربية حين مضى عدد من الكتاب والشعراء يصبون غضبهم على جبهة جزئية ، الا ان ذلك الغضب ما لبث أن تبلور في صيغة موقف ، ومما لا شك فيه أن محمود درويش وسميح القاسم هما طليعة لافتة للنظر في هذا الشأن .

بالنسبة لمحمود درويش فان محور المقاومة ، كمعركة مباشرة ، هو من الوضوح والرسوخ بحيث يطوع موقفه الاجتماعي دون مساومة ، وعلى صعيد فني ، فان العائلة ، عند محمود درويش هي ذاتها الوطن ، وكذلك الحب ، والمسألة برمتها ، في أبعادها المختلفة التي تكون جوهر حقيقتها ، تنسكب في شعره بصورة موحدة راسخة البناء ، وربما كان هذا المقطع يلخص الموقف :

خبئي عن أذُني هذي الخرافات الرتيبة ْ
أنا أدرى منك بالانسان
بالأرضِ الخصيبة ْ
لم أبعْ مُهري
ولا راياتِ مأساتي الخصيبة

ولكن محمود درويش يعرف أن هذا الموقف لا يزال جزئياً ، ولا بد من استكماله ، فيتابع بانسياب تلقائي ، واضعاً للبعد الاجتماعي أساسه الأعمق :

ولأني أحملُ الصخرَ
وداءَ الحبّ
والشمس الغريبة ْ
أنا أبكي !
أنا أمضي قبل ميعادي ، مبكرْ
عمرُنا أضيقُ منا
عمرُنا أصغرُ أصغرْ . .

أصحيحٌ يثمرُ الموت حياة ؟
هل سأثمرْ
في يدِ الجائعِ خبزاً
في فمِ الاطفالِ سكّر ؟

انه يدعو دعوته الواسعة :

فاحموا سنابلكم من الإعصارِ
بالقدمِ المسمّر
هاتوا السياجَ من الصدورِ
من الصدور
فكيف يكسرْ ؟
اقبض على عنق السنابلِ
مثلما عانقت خنجرْ !
الأرضُ والفلاحُ والاصرار
قل لي : كيف تقهر ؟
هذي الاقانيمُ الثلاثةْ
كيف تقهر ؟

وعلى طريقته الخاصة يقول سميح القاسم الشيء نفسه في قصيدته الطويلة « ارم » :

أبداً على هذا الطريقْ
راياتنا بَصَرُ الضريرِ ، وصوتُنا أملُ الغريق
أبداً جحيمُ عدونا ، أبداً ، نعيم للصديق
بضلوعِ موتانا نثيرُ الخصبَ في الأرضِ اليبابْ
بدمائنا نسقي جنيناً في التراب
ونردّ حقلاً شاخَ فيه الجذعُ ، في شرخِ الشباب

ونصبّ في نبضِ المصانع
للمربّي ، والحقائب ، والثياب
نبضَ القلوبِ المؤمناتْ . .
أبداً على هذا الطريق
نذوي فدى أشواق سنبلةٍ على وعدِ العطاء
ونصيحُ من فرحٍ غزيرِ الدمع في عرسِ الفداء :
أبداً على هذا الطريق !
شرفُ السواقي انها تفنى فدى النهرِ العميق !

ولسميح القاسم ومحمود درويش قصائد كثيرة هي اعلان صارخ عن انتساباتهم الاجتماعية التقدمية ، يتبعون في ذلك استاذهم الرائد حنا أبو حنا .

أما على صعيد القصة القصيرة التي لا تزال من حيث مستوى الأداء الفني والانتشار والكم متخلفة عن الحركة الشعرية ، فانه يوجد تركيز أكثر على الوضع الاجتماعي ، ويبدو ذلك واضحاً تماماً في قصة قصيرة لعطاالله منصور اسمها « رياض يعود الى بيته »[3] ، وقصة أخرى لزكي سليم درويش اسمها « نقطة دم »[4] ، وفي عدد كثير من القصص المماثلة ، أهمها «رنين الاجراس» لعبد الرحمن محمد سعيد[5] ، التي تحوي موقفاً طبقياً وتركز على نقد العلاقات الاجتماعية وعدد كبير من القصص القصيرة التي تتعامل مع مشكلات المؤسسة العائلية العربية الريفية ورفضها ، أو على الوضع الاقتصادي المتردي الذي يعيشه العربي في فلسطين المحتلة .

الا أنه من الملاحظ بوضوح ان هذه القصص ، التي تشكو في الغالب من تصدع فني كبير ، تشكو أيضاً من عجزها عن الوصول الى المستوى الذي وصل اليه الشعر في فلسطين المحتلة ، في نطاق الربط بين الجبهات التي تتصدى لها حركة المقاومة

---

٣ — نصها متوفر بالانكليزية فقط ، راجع «نيو آوتلوك» (مجلة شهرية باللغة الانكليزية ، تصدرها في اسرائيل مؤسسة تازبيوث للنشر) ، العدد ٤٣ (نيسان ١٩٦٢) .
٤ — في مجلة «الفجر» ، العدد ٢ (شباط ١٩٦١) .
٥ — في مجلة «الفجر» ، العدد ٣ (أيار ١٩٦٢) .

في صيغتها الثقافية(٦) .

وسبب ذلك لا يعود فقط الى أن الشعر وسيلة فنية أكثر رسوخاً وأكثر قدرة على الانتشار وأكثر ملاءمة لهذا الغرض فنياً، ولكن أيضاً لأن وسائل النشر ، في الظروف التي يعيشها عرب الأرض المحتلة ، لا تسمح بتطور سريع في موضوع القصة بالذات.

* * *

لقد حاولنا الى الآن ان نقدم عرضاً موجزاً للبعد الاجتماعي في أدب المقاومة ، ومن الواضح أن هذا الفصل بين الأبعاد المختلفة، التي تكوّن في مجموعها المترابط أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، لم نلجأ اليه الا بسبب محاولة استكشاف جوهر هذا الأدب وأسس منطلقاته و بنيانه العقائدي ، ولكن على صعيد عملي فان هذا الفصل مستحيل ، لأن أدب المقاومة ، كما ذكرنا سابقاً ، قد توصل من خلال تطور سريع وتلقائي الى ما يمكن أن نسميه موقفاً واحداً ولا يمكن بحال من الأحوال ان تؤخذ جزئيات هذا الموقف منفصلة الا لغرض دراسي محض .

وفي الأساس فان أدب المقاومة في فلسطين المحتلة قد حدد دوره بنفسه ، وبالنسبة لشعراء المقاومة على وجه الخصوص فان الشعر سلاح ، ما في ذلك شك ، ولم تكن كفاءته وجدارته بالنسبة لهم الا التزامه بدوره المقاوم الواعي .

---

٦ — من المؤسف حقاً اننا لا نستطيع ، حتى الآن ، وضع دراسة كاملة عن العمل النثري في الادب العربي في الارض المحتلة ، والرواية الوحيدة التي سمعنا عنها كانت «المشوهون» لتوفيق فياض ، ولكن الحصول عليها كان متعذراً ، ثمة قصص قصيرة تلفت النظر ، اشرنا الى بعضها ، ولكنها لا تكفي فعلا لتكون مصادر بحث متكامل. في هذا النطاق توجد قصة قصيرة جيدة اسمها «لاننا نحب الارض» بقلم محمد نفاع (من بيت جن) نشرت في «الجديد» (ايار ١٩٦٨) وهي قصة تشير الى كاتب واعد ، وفي نفس العدد من هذه المجلة يلمح القارىء ناقداً جيداً اسمه محمد علي طه (من كابول) ومع ذلك يظل الشعر ، وغزارته وتعدد كتابه ، هو الظاهرة الملفتة للنظر .
الا أنه يجدر الاشارة ، مبدئياً ، الى عمل ادبي اسمه «سداسية الايام الستة» بدأ كاتب مجهول اسمه ابو سلام من الناصرة ينشره بالتسلسل في «الجديد» منذ آذار ١٩٦٨ ، ومما لا شك فيه ان وراء هذه السداسية التي يمكن ببساطة اعتبارها نموذجاً للقصة — المقاومة موهبة ممتازة ، وهي تشكل ابرز علامة في العمل النثري العربي داخل الارض المحتلة حتى الآن .

بوسعنا اذن ان نقول ان الالتزام بالقضية الوطنية ، الالتزام الواعي ، هو الاطار الذي استطاع أن يقود خطوات أدب المقاومة في فلسطين المحتلة نحو مسؤولياته دون أن يفقد أي بعد من أبعاده ، هذه الابعاد التي نعود فنقول انها ، على تعددها ، تدور في فلك واحد هو فلك المعركة ضد الاحتلال الاسرائيلي .

ومن هذا المنطلق بالذات سنلاحظ ان شعر المقاومة ، مثلاً ، على عكس معظم الشعر العربي المعاصر ، لا يبدأ بالاستخفاف بقيمة الكلمة في المعركة القاسية ، بل يدرك دورها ويقدسه ويعتبره مسؤولية جوهرية لا غنى عنها .

لقد رأينا في هذا النطاق كيف قال محمود درويش في أعقاب هزيمة ٥ حزيران :

هزي يديّ بعنفٍ
ينساب نهرُ الاغاني . .
يا أمّ مُهري وسيفي

وهذا الادراك العميق للعلاقة التي لا غنى عنها بين الأم والمهر والسيف والاغاني والايدي متوفر بصورة تثير التقدير في شعر المقاومة العربي في فلسطين المحتلة :

فسميح القاسم يبلغ عدوه :

هــذي الحــروف المدلهمّــةْ	يــا سيدي أحــزانُ أمّــةْ
وبهـــا أرويّ غرســــةً	بلظــى جحيمِــك مستحمّة
لا صيــدَ من وادي الأســى	والدمع للأطفــال بسمــــة
لأردّ للثكـــلى ابنَهــــا	لأعيــدَ للمفجــوع أمّــه
فاشحذ مداك عــلى جــرا	حي انــني قربــانُ كِلْمة !

ويحدد سميح القاسم نفسه دور شعره ومنطلقاته بصورة أكثر مباشرة :

من رؤى الاحلامِ في موسمِ خِصْبِ	ومن الخيبة في مأساةِ جــدْبِ
من دمى الاطفالِ ، من ضحكاتهم	من دموعٍ طهّرتها روحُ ربّ

مــــن زنــــودٍ نسقــــت فردوسَهـــــا	دعوةٌ فضلى على أنقاضِ حــــرب
مــــن جراحـــاتٍ يضـــوي حقدها	ما ابتنى شعبٌ عـــلى انقاض شعب
من دمــــي ، من ألمي ، من ثورتي	من رؤاي الخضـــر من روعةِ حبي
مــــن حياتي أنـــت ، من أغوارها	يا أغـــانيَّ ! فرودي كلَّ درب

ويظل سميح القاسم متمسكاً بهذا الموقف الى النهاية ، وفي ديوانه « دمي على كفي » يصر على ذلك :

قصائدُنا ، موقّعةٌ على الفولاذِ
والاخشابِ والصخرِ
وامتّنا تحتّ الزحفَ
ما زالت تحتَّ الزحفَ للفجرِ

قبل هؤلاء بزمن طويل أرسل الشاعر حنا أبو حنا ، من حبسه في سجن الرملة ، عام ١٩٥٨ بطاقة الى رفاقه :

خسئوا ، فما حبسوا نشيدي
بل ألهبوا نارَ القصيدِ
نار تأججُ ، لا تكبّلُ
بالسلاسلِ والقيودِ
نار ، جحيمٌ للطغاةِ
وزمرةِ العسفِ المريدِ
شرفٌ لشعري ان يقضَّ
مضاجعَ الخصمِ اللدودِ
فاعجبْ لشعرٍ يستثير الرعبَ
في مهجِ الحديدِ

أقوى من السجنِ المزنرِ
بالعساكرِ والسدودِ
أقوى وأصلبُ من حشودِ علوجِهم
أبداً نشيدي

وفي قصيدة أخرى :

شعبٌ أنا ، ان يحبسوا فرداً فكلُّ الشعب ثائرْ
واذا يُصفّدُ شاعرٌ هتفَ النشيدُ بكلّ شاعر
شعبٌ يمدُّ حشودَه جسراً على نهرِ المجازر
ويعانقُ الفجرَ الملوّح بالضياء وبالبشائر

ويؤكد محمود درويش هذا التقديس لمسؤولية الكلمة والتزامها بصورة فريدة :

قصائدُنا
بلا لونٍ ، بلا طعمٍ ، بلا صوتِ
اذا لم تحملِ المصباحَ
من بيتٍ الى بيتِ

ويمضي خطوة أخرى في القصيدة التالية بالذات :

لو كانت هذي الاشعارُ
ازميلاً في قبضةِ كادحْ
قنبلةً في كفِّ مكافحْ
لو كانتْ هذي الكلماتُ
محراثاً بين يَدَي فلاحْ
وقميصاً ، أو باباً ، أو مفتاح !

أحدُ الشعراء يقولْ :

لو سرّت اشعاري خلاني
وأغاظتْ أعدائي
فأنا شاعرْ !
وأنا سأقولْ !

ويقول في قصيدة أخرى عن لوركا :

هكذا الشاعرُ ، زلزالٌ ، وإعصارُ مياه
ورياح إنْ زأرْ
همسَ الشارعُ للشارعِ : قد مرّت خطاه
فتطاير يا حجَرْ

وهو يعرف ثمن هذه المسؤولية :

رموا أهلي الى المنفى
وجاءوا يشترون النارَ من صوتي
لأخرجَ من ظلامِ السجنِ
ما أفعل ؟
ــ تحدّ السجنَ والسجّانْ
فإنّ حلاوةَ الايمان
تُذيبُ مرارةَ الحنظلْ

ويعرف أكثر من ذلك :

شدّوا وثاقي
وامنعوا عنّي الدفاترْ
والسجائرْ

وضعوا التّرابَ على فمي
فالشعرُ دمُ القلب
ملحُ الخبزِ
ماءُ العينِ
يكتبُ بالأظافر
والمحاجر
والخناجر
سأقولها :
في غرفةِ التوقيفِ
في الحمامِ
في الاسطبلِ
تحتَ السوط !
تحت القيد
في عنفِ السلاسل :
مليونُ عصفور
على أغصانِ قلبي
تخلق اللحنَ المقاتل

ولأنه يعرف قيمة الصوت فانه يتمسك به تمسكه بالسلاح :

لكن صوتي صاح يوماً :
لا أهابْ !
فلتجلدوه اذا استطعتم
واركضوا خلفَ الصدى
ما دامَ يهتفُ : لا أهابْ !

وأدب المقاومة حافل بهذا الاعلان الواضح عن مهمة لا تحتمل المساومة ولا التمييع . ولفوزي الاسمر موقف مماثل في قصيدة له، اسمها: « المعبد القديم »:

في معبدي القديم لم أزلْ
ألملمُ الحروف
اذيبُها في موقدِ اللهبْ
أصوغُها نغمْ
أنشودة من العزاء والأملْ
ولحنها :
من لحنِ نارِنا وحبِّنا الكبيرْ
من نورِ قلبِنا المنير
من جرحِنا
من جرحِنا الذي يلوّن العبيرْ
من زندِ ذاك الأسمرِ الصلبِ الذي يفجّرُ الصخورْ
من أرضنا الثكلى ، ومن دمعِ الربيعِ على الزهور

اننا نلاحظ مرة أخرى محتويات ذلك الاطار الذي اسميناه الالتزام ، ونحن نرى الآن في الأمثلة الثلاثة الّتي اخترناها كيف يصرّ الشعراء على بعدَيّ موقفهم المقاوم ، الاجتماعي والسياسي في وقت واحد ، انه التزام نحو الوطن والمحرر ، من خلال ادراك دور الكلمة لا الاستهانة بها واعتبارها مجرد رفاه .

ان شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة يمضون في ممارستهم للمسؤولية الى حد أبعد ، يلخصه لنا سميح القاسم في قصيدة له اسمها « بطاقة الى نجيب محفوظ » :

فاغرفْ من أعماقِ البئرِ العذراء
واسقِ العاملَ والفرانَ وأولادَ الحارةْ
فالناسُ ظماء !

أكتبْ عن شحذِ الهمّةْ
واكتبْ عن أحلامِ الأمّةْ
طوبى للحرفِ الشامخِ في الليلِ منارةْ
والعار لابراجِ العاجِ المنهارةْ

فقضية الالتزام ليست نظرية مجردة ، وكذلك ليست قضية التحرير ، والرؤيا الواضحة لأبعاد القضيتين كمبادىء وكرسائل لا تحتمل عند ادباء المقاومة في فلسطين المحتلة غموضاً او تشويشاً او مساومة ، وهذا بالذات ما جعل ادب المقاومة الذي رأيناه في فلسطين المحتلة خلال السنوات العشر الماضية أدباً لا ينوح ولا يبكي ، لا يستسلم ولا ييأس ، ولا يناقض نفسه ويمر عبر تشنجات عصبية واهتزازات ناتجة عن سوء وعي الموقف على حقيقته ، لأن رؤياه لم تكن ارتجالاً عاطفياً ، ولكن وعياً عميقاً ومسؤولاً لأبعاد المعركة التي وجد نفسه في صميمها ، ولذلك فانه تجنب ظاهرة الانتكاسات الذاتية الرومانطيكية التي شهدها معظم الشعر العربي في هذه الآونة ، والتي نلاحظ أنها تشتد وتأخذ طابع النُواح والهستيريا والتنصل ، كلما كانت تجربة الشاعر نفسه أكثر بعداً عن إدراك أبعاد التزاماته ووعيها في السابق .

فمقابل ما قرأناه جميعاً في الآونة الأخيرة من الشعر العربي ، يستقبل توفيق زياد ، مثلاً ، كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧ بقصيدة يقول فيها :

يا بلادي ! أمسِ لم نطفُ على حفنةِ ماءْ
ولذا لن نغرقَ الساعةَ في حفنةِ ماء !

بهذا الثبات يكتب توفيق زياد قصيدته الرائعة « كلمات عن العدوان » ، وهي قصيدة مفعمة بالحزن ولكنه الحزن الواعي الذي لا يستطيع ان يهدم :

انكم تبنونَ لليومِ وانّا
لغدٍ نعلي البناءْ
اننا أعمقُ من بحرٍ وأعلى
من مصابيحِ السماءْ

إن فينا نَفَساً
أطولَ من هذا المَدى الممتدّ
في قلبِ الفناءْ

ومحمود درويش يستقبل كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧ بذلك الحزن الذي لا يصدق ، الذي يرتد فوراً الى نفس جديد من الإصرار :

خسرتُ حلماً جميلاً
خسرتُ لسعَ الزنابقْ
وكان ليلي طويلاً
على سياجِ الحدائقْ
.. وما خسرت السبيلا !

وفجأة يرتد الى كورس شعبي يشكل خلفية هذا الحزن والتوق ، والسد المنيع الذي يتكىء عليه :

يما مويل الهوى
يما مويليا
ضرب الخناجر ولا
حكم النذل فيّا !

أما سميح القاسم فيستقبل ٥ حزيران ١٩٦٧ بصورة فريدة ، في قصيدة عن الفدائي ، تنتهي كما يلي ، على لسان الفدائي الشهيد :

يا من ورائي
لا تخونوا موعدي
هذي شراييني
خذوها وانسجوا منها
بيارقَ نسلِنا المتمرد

ان مثل هذه المواقف لا يمكن أن تأتي بهذه التلقائية لو لم يكن هؤلاء الشعراء قد أدركوا منذ البدء ، ليس فقط أبعاد معركتهم التي راهنوا عليها في نهاية المطاف ولكن أيضاً مدى التزامهم ومعناه وكونه أكثر عمقاً من مجرد تظاهرة شكلية .

* * *

ان هذا الكلام يقودنا على التو لمتابعة استكشاف الأبعاد التي التزم بها أدب المقاومة ، وقد استعرضنا قبل قليل الالتزام الواعي كاطار هذه الأبعاد ، واستعرضنا قبل ذلك الالتزام بالبعد الاجتماعي لمسألة المقاومة ، وأمامنا الآن : البعد العالمي ، والبعد العربي .

وكما قلنا فان تجزئة الموقف الى هذه التفاصيل هدفه تسهيل العرض ، وقد رأينا في الأمثلة التي استعرضناها نموذجاً لاستحالة فصل هذه الأبعاد عن مجمل الموقف .

عالمياً يدرك شعر المقاومة التزامه بحركة الثورة في العالم ، التي هي في نهاية المطاف المناخ الذي تنمو داخله الحركة الثورية المحلية ، تؤثر به وتتأثر منه .

فيما بين أيدينا من أدب المقاومة يلفت نظرنا بصورة مدهشة كمية ونوعية الانتاج الذي يغني لثورات العالم وقضاياه الحرة ، وقد تلخص لنا قصيدة لمحمود درويش اسمها : « أناشيد كوبية » جوهر هذا الالتزام ومعناه :

أنا لم ألمسْ قصبَ السكّرْ
والارضَ الخضراءْ
لم أركبْ قاربَ صيادٍ في البحرِ الكاريبي
لم اضربْ قطرةَ ماءْ
لم أنزلْ فندقَ سياحٍ غرباءْ
لم اسكرْ في هافانا من عرقِ الفقراءْ
لم أغمسْ قلَمي في جرحِ البؤساء المحرومين
لم أقرأ أدبَ الشعراء الكوبيينْ
لكنْ عندي عن كوبا أشياء

فكلامُ الثورةِ نور
يقرأُ في كلِّ لغاتِ الناسْ
وعيونُ الثورةِ شمس
تُمطرُ في كلِّ الأعراسْ
ونشيدُ الثورةِ لحن
تعرفُه كلُّ الاجراسْ
والرايةُ في كوبا
يرفعُها نفسُ الثائرِ في الأوراس
وجذورُ الثورةِ مهما مدَّت أغصاناً
تنبتُ من نفسِ المتراسْ
واللهبُ الأزرقُ والأحمرُ والأخضر
يبدأُ من غضبٍ واحد
فتدفّأ . .
واصنعْ لهباً آخر
يا شعباً يشعرُ بالبرد

حين قلنا ان ابعاد أدب المقاومة المختلفة يشد نفسه ، بجاذبية قوية ، الى محور واحد هو محور المقاومة نفسها التي يخوضها الاديب المعني ، فإنما كنا نقصد تلخيص هذه القصيدة ، بجملة .

ولكن ليس محمود درويش وحده هو الذي يلتزم شكلاً ومضموناً بهذا البعد الحيوي من أبعاد أدب المقاومة ، فثمة قصائد كثيرة لفوزي الأسمر ، بهذا المعنى ، أبرزها « أنا عبد » موجهة لشعب افريقيا ، ولسميح القاسم عدة قصائد عن باتريس لومومبا ، وافريقيا ، وزنوج اميركا ، وله أيضاً في قصيدته الطويلة « ارم » مقطع اسمه « بطاقات الى ميادين المعركة » وهي سلسلة من القصائد القصيرة موجهة الى المغني الزنجي بول روبنسون ، وفيدل كاسترو وكريستوف غبانيا وثوار الفيتكونغ.

وفي قصيدته هذه ، « الى ثوار فيتكونغ » يقول :

إسمعْها تهدرُ ملءَ دمي
إسمعْها في الوديانِ على الغاباتِ على القممِ
إسمعْ صرخاتِ الاحرارِ وقهقهةَ الرشاشْ
إسمعْ غاراتِ الفاشستِ الأوباشْ
وأصيحُ أصيحُ بلا صوتٍ :
الموتُ لآلهةِ الموتِ .

ولنلاحظ الآن ، هذا الانتقال المذهل :

وأُحسُّ بكفي تتقلّصْ
وأغيبُ لبرهةْ
وأُحسُّ كأني أتربّصْ
بذئابِ الغزوِ على أرضِ الجبهةْ
وأصبُّ على الأشباحِ النارَ .. وأبكي

ويعود في قفزة مماثلة :

من يجرعُ في باراتِ نيويورك الويسكي
من يلقى في المقهى حلوةْ
من ينشدُ في الشارع غنوةْ
من يحرثُ في امريكا ، من يزرعْ
من يحرثُ في فيتنام ويزرعْ
من يبقى في المصنع
من يبقى؟
يا آلهةَ الموتِ الحمقى في امريكا
يا آلهةَ الموتِ الحمقى !

وفي هذا النطاق نجد قصيدة لراشد حسين عن آسيا « بلد الرجال الثائرين على مماطلة الزمان » وقصيدة أخرى لابراهيم مؤيد اسمها « انشودة زنجي » وهي قصيدة تدل على ولادة شاعر جيد ، الا اننا مع الأسف لم نعد نسمع عن انتاج جديد له ، وسنرى عدداً كبيراً من القصائد ، في هذا النطاق ، لمحمود دسوقي ، وقصائد ذات أهمية قصوى لحنا أبو حنا عن كوبا وعن افريقيا المشرقة .

ان الالتزام بالبعد العالمي للمعركة كان دائماً من ميزات شعر المقاومة ، ومع ذلك فان هذا الالتزام لم يؤد الى تمييع الالتزام بالصيغة المباشرة للنزال ، ولكنه أغناه وأعطاه معنى وعمقاً وحافزاً ، عكس تجارب كثيرة حدثت في الفترة الماضية في عدد من البلدان العربية .

بهذا المجال يجدر بنا أن نسجل موقفاً لمحمود درويش الذي كان ديوانه الأول « عصافير بلا أجنحة » في معظمه ، غناء لثورات افريقيا ، والذي غنّى لثورات العالم بإخلاص وعمق وتلقائية تبعثُ على الاعجاب ، والذي — أيضاً — قدم فيما أرى أجود رثاء عربي للشاعر الاسباني الثائر لوركا ، نقول ، مع ذلك كله ينظر محمود درويش نظرة واعية للمسألة كلها في قصيدته : « عن الامنيات » ، حين يقول :

لا تقلْ لي :
ليتني بائعُ خبزٍ في الجزائرْ
لأغنّي معَ ثائرْ
لا تقلْ لي :
ليتني راعي مواشٍ في اليمنْ
لأغني لانتفاضاتِ الزمنْ
لا تقلْ لي :
ليتني عاملُ مقهى في هفانا
لأغني لانتصاراتِ الحزانى
لا تقلْ لي :
ليتني أعملُ في أسوان حمّالا صغيرْ

لأغني للصخورْ
يا صديقي !
أرضُنا ليستْ بعاقِرْ
كلُّ أرضٍ ، ولها ميلادُها
كلُّ فجرٍ ، وله موعدُ ثائرْ !

ان وعي الالتزام بحركة الثورة في العالم يكتسب قيمته مما يؤديه الى وعي الالتزام بالثورة المحلية ، وليس من كونه صيغة رومانطيكية ذات طابع تنصلي عن طريق المزايدة ، وهذا الادراك الذي عبر عنه أدب المقاومة العربي بوضوح ومباشرة وحسم يضع البعد الانساني في المقاومة في مكانه الصحيح ، الذي يشكل حافزاً ومسؤولية ، في آن واحد .

يضع سميح القاسم هذا المبدأ كما يلي :

فهناك ، في أعماقِ افريقيا الجواري والعبيدْ
فجرٌ يمرّ بكفّه فوقَ الجباهِ الناحباتْ
ويصبُّ فيها النورَ والدمَ والحياةْ
وهناك في أعماقِ امريكا الجريمةُ والتمزقُ والضّياعْ
طبلٌ يدقُ بلا انقطاعْ
لمدينةٍ تُشرى وزنجي يُباعْ
وهناك ، في الافقِ القريبِ هناكَ في الأفقِ البعيدْ
ليستْ تُتمّ الارضُ دورتَها بلا نصرٍ جديدْ
فاحملْ لواءك وامضِ في هذا الطريقْ
. . أبداً على هذا الطريقْ
شرفُ السواقي أنها تفنى ، فدى النهرِ العميق

* * *

ولكن الامر يختلف ، من حيث الكم والنوع ، حين يتعامل أدب المقاومة مع واحد من أبعاده الأساسية ، وهو البعد العربي .

ان طبيعة القضية الفلسطينية تضعها في مركز الوسط من التفاعلات العربية ، وبالتالي فان شعر المقاومة في فلسطين المحتلة يمكن ان يوصف بأنه الناطق بلسان تلك التفاعلات والمؤرخ لها .

في ديوان شعر المقاومة ليس بالامكان مرور أي حدث عربي دون ان يؤرخ في ذلك الشعر ، بل ان عدوان ١٩٥٦ على مصر كان نقطة تحول أساسية في تاريخ ذلك الشعر ، وكذلك كانت ثورة الجزائر ، وثورة اليمن ، وبناء السد العالي ، وفي هذا النطاق بالذات تبدو ولاءات المقاومة العربية والاجتماعية ممتزجة بصورة عضوية لا تحتمل الفكاك .

سنجد في قصيدة « بطاقة الى الاسطى سيّد » لسميح القاسم نموذجاً مختصراً وكافياً لما نقصده :

يا أسطى سَيّدْ !
إبن ِ وشيّدْ
شيّدْ لي السدّ العالي
شيّدْ لَكْ
أطفىءْ ظمأ الغيظِ الغالي
وامنحْنا
وامنحْ أهلَكْ
كوباً من ماءْ
وخضاراً وزهوراً وضياءْ
يا أسطى سيّدْ
أزِفَ الموعِدْ
والقريةُ في الصحراءِ العطشى تحلمْ

والبذرةُ في الثلم الصابرِ تحلمْ
فادفِنْ أشلاءَ القمقمْ
في أشلاءِ الصخرِ المتحطمْ
وابنِ وشيّدْ
يا أسطى سيّدْ
باسمِ ضحايا الاهرامِ وباسمِ الاطفالْ
إبنِ السدَّ العالي !
يا صانعَ حلمِ الأجيال !

ان الاختلاط شديد الوعي ، في مهمة الاسطى سيد ، حيث لا يعرف القارىء لمن يبني السد العالي ، لضحايا الاهرام ام للارض العطشى ، ام للجيل العربي الاسير في فلسطين المحتلة ، يذكرنا بشيء مماثل في قصيدة أخرى لسميح القاسم نفسه ، عن صنعاء ، غداة الثورة ، حين يغني لصحرائه ولمستقبله .

الشيء ذاته نلحظه في شعر محمود درويش ، فهو يبدأ قصيدة طويلة له عن « الأوراس » كما يلي :

بيتي على الأوراس كان مباحاً
يستصرخُ الدنيا مساءً صباحاً
وترابُ أرضي من دمي معشوشبٌ
كي يشربَ الغرباءُ منه الراحا

ثم يقول في القصيدة ذاتها :

فالوحشُ يقتلُ ثائراً
والارضُ تُنبتُ ألفَ ثائرْ
يا كبرياءَ الجرحِ ! لو متنا
لحاربتِ المقابرْ !

فملاحمُ الدمِ في ترابِكِ
ما لها فينا أواخرْ
حتّى يعودَ القمحُ للفلاحِ
يرقصُ في البيادرْ

ويقول :

أوراس ! يا « أولبنا » العربي
يا ربَّ المآثرْ
إنّا صنعنا الانبياء على سفوحِكَ
والمصائرْ
أوراسُ ! يا خبزي وديني
يا عبادةَ كلِّ ثائرْ

ويمضي محمود درويش في قصيدة أخرى اسمها « نشيد للرجال » الى تحديد أكثر لهذا البعد في موقفه :

سنخرجُ من معسكرِنا
ومنفانا
سنخرجُ من مخابينا
ويشتمُنا أعادينا :
« هلا ! همجٌ هُمُ ، عربُ ! »
نعمْ !
عربُ
ولا نخجلْ
ونعرفُ كيف نُمسك قبضةَ المنجلْ
وكيف يقاومُ الأعزلْ
ونكتب أجمل الأشعار !

انه من الجدير بالتسجيل ان سميح القاسم كان أول شاعر عربي يغني لثورة « الذئاب الحمر » في ردفان غداة تفجرها ، مدركاً بعدها العميق ومعناها :

حمت سراياك ! فاشربْ من سرايانـا
كأسـاً جرعـت بها للـذل ألوانـا
واشحذْ مداك على الجرحِ الذي عصفتْ
دماؤه بقـلاعِ البغـي نيرانـا
أركـانُ عرشِـك آلينـا نقوضهـا
فاحشـدْ فلولَـك حيـاتٍ وعقبانا
يا طامعـاً بالذئابِ الحمـرِ ، ما غنمت
اطماعُك السودُ ، الا بعضَ قتلانـا
بلادُنـا القدَرُ المحتومُ قاطنهـا
مذ كانـت الشمسُ ، ما لانت وما لانا
يا عابـدَ النارِ ! ما زالـت مؤرثـة
على القنـال . . فمـاذا تعبد الآنـا ؟

وفي ذلك الوقت كتب سميح القاسم قصيدة أخرى اسمها « عروس النيل » عن السد العالي كمظهر نضالي :

اسمعه . . اسمعه !
عبر فيافي القحطِ في مجاهلِ الأدغال
يهدرُ ، يدوي ، يستشيط
فاستيقظوا يا أيها النيامْ
ولنبنِ السدودَ قبلَ دهمةِ الزلزالْ
تنبهوا . . بهذهِ الجدران
تنزل فينا من جديدٍ نكبةُ الطوفان

وفي وقت أبكر بكثير من التاريخ الذي كتب فيه سميح القاسم ومحمود درويش هذه القصائد ، كان البعد العربي موجوداً بعمق في موقف المقاومة ، نذكر هنا قصيدة قديمة [١٩٥٨] لشاعر من الأرض المحتلة اسمه عصام عباسي :

هذي بساتيلُ العراقِ
تهدّها كتلُ الحشودِ
بغدادُ يا بلدَ الرشيدِ
أتيتُ بالفعلِ الرشيدِ

وينتقل الشاعر ، في قصيدته نفسها ، في جولة في البلاد العربية جميعها يقدم من خلالها موقفاً تقدمياً مسؤولاً ، لا يخضع للافتعالات الرومانطيكية التي تؤدي غالباً الى الاحتيال على الذات .

ولجمال قعوار(٧) قصيدة عن الجزائر اسمها « هذي الطريق » تتضمن ذلك الموقف المسؤول بوضوح ، والواقع ان ثورة الجزائر فجرت نوعاً فريداً من الشعر في فلسطين المحتلة ، وأوقدت حوافز جديرة بالتأمل .

فالشاعر حبيب قهوجي الذي غنّى قبل ذلك لثورة مصر ومعركة ١٩٥٦ فاتحاً المجال أمام انعطاف جذري في شعر المقاومة قفز به نحو التصدي المباشر لموضوعاته الاساسية ، يقول في قصيدة عن الجزائر :

دمُ الاحـرارِ لـم يذهبْ هبـاءً ... بمعتكـرِ الدجـى أمسى شهابـا
تقدسُـه شعـوب الشـرقِ طُرّا ... وتبذلُ دونَ حرمتِـه الشبابـا

ثم يقول :

فيا شعبَ العراقِ ، إلامَ نـومٌ ... يحـدُّ تمرد الطغيـانِ نابـا
فدونَـك في الجزائر كيف تمحـى ... جيوش البغـي تعطينـا ضرابـا

---

٧ — ولد في الناصرة عام ١٩٣٠ ، يعمل مدرساً الآن ، له شعر جيد وهو يهتم بالنقد . ومن المعتقد انه كتب بعض القصص القصيرة. تثير مقالاته وآراؤه الأدبية جدلا في الوسط الثقافي العربي في الارض المحتلة .

ان هذا النداء المباشر للعراق ، لتفجير الثورة التي انفجرت بالفعل فيما بعد ، في ١٩٥٨ ، قد حدا بالشاعر نفسه في وقت لاحق للمشاركة في انشاء حركة « الارض » التي لعبت دوراً أساسياً في المقاومة داخل فلسطين المحتلة .

في تلك المرحلة بالذات التي امتدت من ثورة مصر في ١٩٥٢ الى عام ١٩٦٠ ، كان الشعر الغالب في الارض المحتلة هو الشعر الملتزم بالصيغة الكلاسيكية من حيث الشكل، وبما يشبه الخطابية من حيث النبرة ، منسجماً في ذلك مع الزلزال الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي كان يجتاح المنطقة العربية ، في الوقت نفسه الذي كان ينسجم فيه مع مرحلة أولية من مراحل تطوره ونشوئه .

في تلك الفترة بالذات غنى شعراء عرب عديدون ثورة الجزائر ، فبالاضافة للشعراء الذين ذكرناهم توجد قصائد طويلة لراشد حسين وأبي أياس ، ومحمود دسوقي وجمال قعوار وحنا أبو حنا ، وابن الرامة ، وعصام عباس ، وفوزي الاسمر ، وغيرهم[8] ، ولكن مما لا ريب فيه ان محمود دسوقي قد دخل الى تفاصيل التفاصيل ، بكل شيء يتعلق بالعرب ، أكثر من سواه .

طابع تلك المرحلة يلخصه راشد حسين في قصيدته :

سنُفهمُ الصخرَ إنْ لم يفهمِ البشرُ
ان الشعوبَ إذا هبّتْ ستنتصرُ
دمُ الجزائرِ صدرُ الفجرِ كعبتُه
ونارُه فوقَ صدرِ البغي تستعرُ

ويقول حنا أبو حنا في قصيدة طويلة اسمها رسالة من مناضل جزائري الى ولده :

ولدي ! لأجلك قد حملتُ سلاحي — ولاجلِ رغدِك ثورتي وكفاحي
ورأيتُ شعبي سيلَ نارٍ دافقٍ — متوثبٍ في موكبِ الأرياحِ

---

٨ — راجع مقالا حول الموضوع بقلم فوزي الاسمر في مجلة « الفجر » ، العدد ١٠ (ايلول ١٩٦٠) .

واذا اللهيبُ ، بريقُ عينِك ساطعاً وعيونُ شعبي الثـائرِ الطمّاحِ
فلاجـلِ تحريرِ الجزائرِ ثورتي ولأجـلِ رغدِك وثبتي وكفاحي

ولكن ، كما رأينا ، فان الصياغة الفنية ، التي جاءت في هذه المرحلة على هذه الصورة الخطابية لم تكن على حساب المضمون ، ولقد استطاعت تجارب شعراء المقاومة ، من خلال الممارسة ، ان تطور الشكل الى الصيغة المعاصرة الحديثة ، وفي هذا النطاق جرى التطوران : الشكل والمضمون ، في اتساق وانسجام ولم ينحر احدهما الآخر ، فيما ظلت جذور الالتزام والمعاداة في أصلها هي الرابط الجوهري في هذا التطور .

وعلى هذا الاساس ، تلقى شاعر مثل توفيق زياد كارثة الخامس من حزيران ١٩٦٧ مرة أخرى على هذا الصعيد ، بثبات :

ثم . . ماذا بعدُ ؟ لا أدري ، ولكنْ
كلُّ ما أدريه أن الارضَ حبلى والسنون . .

ثم يقول :

فارفعوا ايديكمُ عن شعبِنا
لا تُطعموا النارَ حطبْ
كيف تحيَوْن على ظهرِ سفينةْ
وتعادون محيطاً من لهب ؟

وينتهي الى القول :

كبوةٌ هذي
وكم يحدثُ ان يكبو الهمامْ
إنها للخلف كانتْ
خطوةٌ
من أجلِ عشرٍ للامام !

وفي الحقيقة، فان البعد العربي في الادب الفلسطيني كان دائماً ظاهرة أساسية. وليس ارتباط أدب المقاومة الفلسطيني الراهن بهذا البعد ، وتعميقه ووعيه ، الا استمراراً لتلك الظاهرة تاريخياً ، ولكن هذه الملاحظة هي عنوان لموضوع آخر .

* * *

لقد رأينا ، باختصار ، اولاً كيف يرتبط أدب المقاومة في فلسطين المحتلة الى بعد اجتماعي ويطرح ولاءه للطبقة الكادحة التي على أكتافها تعلق لمقاومة بنادقها ومصيرها (٩) .

ورأينا ، ثانياً ، كيف يحافظ أدب المقاومة على هذا الارتباط الاجتماعي التقدمي في ممارسته لبعد آخر من ابعاده وهو بعد الالتزام بالثورات التحررية في العالم .

ورأينا ، ثالثاً ، كيف يرتبط أدب المقاومة ببعده العربي ارتباطاً عضوياً راسخاً ، دون ان يفقد وضوح نظرته الاجتماعية في هذا الارتباط ، ومع ادراك عميق لمعناه وضرورته واصالته .

ورأينا ان هذه الارتباطات تحدث ضمن اطار من الالتزام بقدسية الكلمة والايمان الذي لا يتزعزع بدورها وقيمتها والتمسك بمسؤولياتها كسلاح أساسي في حركة المقاومة التي تشمل معنى أوسع بكثير من مجرد المقاومة المسلحة .

ولكننا قلنا أيضاً ان هذه الارتباطات الثلاثة ، في اطارها من الالتزام الفني المسؤول ، تظل تدور حول محور أساسي هو التصدي الشجاع للمعركة المباشرة ، اليومية والقاسية والباهظة الثمن ، مع العدو المحتل الذي يجثم بثقل مباشر على صدر الوجود العربي ، في فلسطين المحتلة .

---

٩ – يجدر بنا أن نلاحظ أن الغالبية الساحقة من عرب الارض المحتلة الذين يبلغ عددهم أكثر من ٣٠٠ الف نسمة (دون الاراضي التي احتلت في حزيران ١٩٦٧) هي من الفلاحين ، والشعراء أنفسهم الذين يتوجون أدب المقاومة في فلسطين المحتلة جاءوا من الريف ، والواضح – سياسياً وقومياً – ان سكان الريف الفلسطيني المحتل هم الذين بادروا الى النضال الوطني وتحملوا القسط الاوفر من مسؤولياته ونتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية (راجع: «العرب في اسرائيل» ، بقلم المحامي صبري جريس) .

فكيف يعبر أدب المقاومة عن هذه المسؤولية المباشرة ، وكيف يخوض معركتها ، دون ان يفقد ارتباطاته الاجتماعية والعربية والدولية ؟

ان أدب المقاومة في هذا النطاق ، غزير الانتاج ، واذا كانت الظروف التي يعرفها الجميع تحول دون تعقب دقيق لحركة الانتاج هذه على جميع المستويات ، فان ما يتوفر بين أيدينا الآن يكفي كنموذج .

لقد رأينا كيف تصدى توفيق فياض في مسرحيته « بيت الجنون » من خلال صيغة فنية متقدمة الى المهمة المباشرة للمقاومة ، حين تخلص من تشوشه في لحظة مواجهة ناصعة الوضوح ، قرر فيها ، مباشرة وبحسم ، أنه لن ينسى ، وأنه يرفض الاقتحام المعادي ، وانه سيقاتل وحده .

سنرى محمود درويش في لحظة مواجهة مماثلة ، تشكل نوعاً فذاً من الصحو الدائم ، حين يقول ، رافضاً التنصل مهما كانت براعة الصياغة :

ذليلٌ أنت كالأسفلت
ذليلٌ أنت
يا من يحتمي بستارةِ الضجر !

وثمة لحظة مماثلة ، عند سميح القاسم :

. . وأخافُ ، أخافُ من الغدرِ
من سكينٍ يُغمدُ في ظهري
لكني . . يا أغلى صاحبْ
يا طيّبَ . . يا بيتَ الشعرِ
رغمَ الشكِ ، ورغمَ الاحزانْ
اسمع اسمع وقعَ خطى الفجرِ

عبر هذا الصحو ، الذي يعي تماماً جوهر المواجهة ، وقف شعر المقاومة العربي في فلسطين المحتلة مؤرخاً ليوميات المقاومة الجماهيرية ، جاعلاً من انتكاساتها وعذابها وقوداً لتجديد توق ملتهب .

في قصة قصيرة لفوزي الاسمر ، اسمها « رمال ودموع » يروي هذا الكاتب الشاب الذي ولد وعاش في بلدة « اللد » قصة عربي حاول قتل سائق تراكتور اسرائيلي ، والمعضلة بالنسبة للمحكمة هي أن السائق الاسرائيلي لا يعرف ذلك العربي ، ولم يسبق له أن قابله ولا يعرف سبباً للمحاولة .

بالنسبة للعربي فان المسألة لها تفسير ومبرر ، فقد شهد عن بعد ذلك السائق يربط جذع شجرة زيتون كان يملكها ، وترمز بالنسبة له الى تاريخ عائلته ، محاولاً انتزاعها من أرضها ، وحين اندفع نحوه ليقتله كان في الواقع يرمي الى الدفاع عن عرضه وشرفه .

وتنتهي القصة نهاية مفاجئة حين ترفع المحكمة جلستها لتدارس الحكم الذي ستصدره على العربي .

وهذه « النهاية — الاشكال » ، هي موقف واضح ومن نوع حاسم ، فحكم المحكمة لا يهم على الاطلاق ، وأساس القضية موجود ومحلول — في القصة نفسها ، والنهاية هي أبعد ما تكون عن علامة الاستفهام التي يخيل للقارىء أنها موجودة في السطر الاخير منها .

لا توجد علامة استفهام في هذا الصدد ، وإن كانت القصائد والقصص والمسرحيات التي انتجها ادباء المقاومة تحفل بها من حيث الشكل ، الا انها لا تعني الا نوعاً من « الاستفهام الذاتي » ، اذا جاز التعبير ، غايته الاساسية التأكيد بأنه يوجد جواب واحد فقط .

لقد رأينا نموذجاً لهذا « الاستفهام الاثباتي » في النماذج التي قرأناها من مسرحية توفيق فياض « بيت الجنون » وهو استفهام — كما قلنا — لا يقصد الى التساؤل بقدر ما يقصد الى اثبات انه لا يوجد أي طريق آخر .

وهو استفهام من نوع :

ثم ماذا بعد؟ لا أدري ! ولكن
كل ما أدريه ان الارض حبلى . . والسنون

كما يقول توفيق زياد في قصيدته « كلمات عن العدوان » التي كتبها في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ .

وهو تساؤل من ذلك النوع الذي ضمنه حبيب قهوجي في رثاء كتبه عام ١٩٥٧ لشهداء كفرقاسم :

جنكيزخان تثاءبت اياَمُه ؟
أم جندُ هتلرَ للدمارِ ضواري ؟

وتتكرر الصيغة نفسها ، في قصيدة أخرى ، لراشد حسين في ذلك الوقت ، يرثي فيها شهداء قرية صندلة :

مرج ابن عامر ، هل لديك سنابلُ
ام فيك من زرعِ الحروبِ قنابلُ ؟
أم حينما عزَّ النباتُ صنعتَ من
لحمِ الطفولةِ غلةً تتمايلُ ؟

ويطوّر محمود درويش هذه الصيغة الى درجة حاسمة :

يا وجهَ جدي !
يا نبياً ما ابتسمْ
من أيِّ قبرٍ جئتَني
ولبستَ قمبازاً بلونِ دمٍ عتيق
فوق صخرةْ
وعباءةً في لونِ حفرةْ ؟
يا وجهَ جدي !
يا نبياً ما ابتسمْ
من أيِّ قبرٍ جئتَني
لتحيلَني تمثالَ سمّ ؟

الدين أكبر !
لم أبعْ شبراً ، ولم أخضعْ لضَيْمْ
لكنهم رقصوا وغنّوا فوق قبرك
فلتنمْ !
صاح أنا ، صاح أنا ، صاح أنا
حتى العدم . .

ولكن بعيداً عن هذه المسألة الجزئية التي توقفنا عندها بسبب تكرارها وترددها في شعر المقاومة ، فاننا نلاحظ ظاهرة هامة عامة ، وهي توفر درجة متقدمة من التحدي الواعي ، القادر على تحويل العذاب الى حافز ثوري .

لقد لاحظنا ذلك بوضوح في القصائد التي كتبها شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة في أعقاب العدوان الاخير ، ولكن هذه الظاهرة في الحقيقة تأخذ طابع القاعدة ، سواء في مواجهة العذاب الشخصي ، أم الجماعي ، نهاية بالمستوى القومي .

فمن السجن كتب محمود درويش أروع قصائده وأكثرها توهجاً بالامل والاصرار والتحدي ، وهي قصيدة تذكرنا برسالة حنا أبو حنا التي بعث بها حين كان سجيناً في الرملة عام ١٩٥٨ ، يقول محمود درويش :

من آخر السجن طارت كفُّ اشعاري
تشدُّ ايديكمُ ريحاً على نارِ . .
أقولُ للمحكمِ الاصفادِ حولَ يدي :
« هذي أساورُ أشعاري واصراري ! »
في حجم مجدِكمُ نعلي ، وقيدُ يدي
في طولِ عمرِكمُ المجدولِ بالعارِ . .
في اليومِ أكبر عاماً في هوى وطني
فعانقوني عناقَ الريحِ للنارِ !

يقول ذلك لأنه يؤمن أن :

المغني على صليبِ الألم
جرحُه ساطعٌ كنجم
قال للناس حولَه :
كلُّ شيء ، سوى الندم . .
هكذا متّ واقفاً
واقفاً متّ كالشجر !

ولسميح القاسم قصيدة اسمها « رسالة من المعتقل » :

أماهُ ! كم يؤلمُني !
انك تجهشين بالبكاء
اذا أتى يسألكم عني أصدقاء . .
لكنني أومن يا أماهْ
أومن
أن روعةَ الحياة
تولدُ في معتقلي
أومن ان زائري الاخيرَ لن يكون
خفاشَ ليل
مُدلجاً ، بلا عيون
لا بد ان يزورَني النهار . .

وللقاسم قصيدة طويلة من أربعة أناشيد عنوانها الرئيسي «من وراء القضبان». وقد حالت الظروف دون معرفة النشيدين الأوسطين في هذه القصيدة اللذين صودرا ومنعا بالقوة ، ولكن المناخ العام للنشيد الاول والأخير يثبتان ما ذهبنا اليه .

هذا على صعيد شخصي . . أما على صعيد جماعي فقد غنى شعراء الأرض المحتلة الأحداث اليومية التي مر بها شعبهم الاسير ، وقد رأينا قبل قليل كيف

سجل حبيب قهوجي وراشد حسين مجزرتي كفرقاسم وصندلة ، ورأينا أمثلة أخرى في قصص زكي سليم درويش ، وعطاالله منصور ، وفوزي الاسمر ، وسجّل الشعر الشعبي بدوره احداثاً يومية[10] وتصدى للعملاء في نوع من التشهير الذي كبلهم وشل نشاطهم فعلاً ، وكذلك في حالات رثاء وتشجيع[11]. وقد تابع محمود درويش قضية النازحين بصورة فريدة ، ونظم سميح القاسم عدة قصائد عن مجزرة كفرقاسم ، واحدة منها لا نعرف الا مطلعها ، وحال الحكم العسكري الاسرائيلي المفروض على العرب دون وصول آخرها ، أما قصيدته الثانية ، عن كفرقاسم ، التي القاها في تجمع شعبي ذهب الى القرية المنكوبة للعزاء في الذكرى العاشرة وحال الجنود الاسرائيليون دون وصولهم الى القرية ، فقد أدت الى تظاهرة شعبية عنيفة .

وبالنسبة لمجزرة كفرقاسم فقد شكلت نقطة انعطاف اساسية في الموقف المقاوم لشعراء الارض المحتلة العرب ، إذ من النادر الا يأتي ذكر كفرقاسم كشهادة دائمة على المقاومة .

لمحمود درويش ، كما رأينا ، أناشيد كاملة في ديوانه الاخير « آخر الليل » عن كفرقاسم باسم « ازهار الدم » يخاطب فيها الشهداء الخمسين الذين جزروا في تلك القرية عشية العدوان الثلاثي على مصر ، وفيها يتحول الشهداء الخمسون الى اوتار تعزف صمود الشاعر :

لمغنيك على الزيتون ، خمسون وترْ
ومغنيك اسيراً كان للريحِ
وعبداً للمطرْ . .

١٠- في الجانب المحتل من قرية «بيت صفافا» تشيع زغرودة أثناء الأعراس تقول :
«وين ام العرب ، مالي لا اريها
في عرس ابنها تيجي اهنيها
واقفي قبالي
ومش قادرة احاكيها »
فترد زغرودة أخرى في الجانب العربي من القرية المشطورة ذاتها ، في حوار يتجاوز الاسلاك بصورة رمزية فريدة ، وهذا – على أي حال – موضوع آخر .

١١- راجع « أدب المقاومة ، في فلسطين المحتلة » ، للمؤلف .

ومغنيك الذي تابَ عن النومِ
تسلّى بالسهرْ
سيسمي طلعةَ الوردِ ، كما شئتِ : شررْ !
سيسمي غابةَ الزيتونِ في عينيك :
ميلادَ سَحَرْ !
وسيبكي ، هكذا اعتادَ ،
اذا مرَّ نسيمٌ فوقَ خمسين وترْ
آهِ ! يا خمسينَ لحناً دموياً
كيف صارت بركةُ الدمِ نجوماً وشجرْ ؟
الذي مات هو القاتلُ ، يا قيثارتي
ومغنيك انتصرْ

ثم يقول :

كفرقاسم !
انني عدتُ من الموتِ لأحيا ، لأغني
فدعيني استعر صوتيَ من جرحٍ توهّجْ
وأعينيني على الحقدِ الذي يزرعُ في قلبيَ عَوْسَجْ
إنني مندوبُ جرحٍ لا يساومْ
علمتني ضربةُ الجلادِ
أن أمشي على جرحي
وأمشي ، ثم أمشي ، وأقاوم !

ومثلما عاد محمود درويش في قصيدته هذه الى «كفرقاسم» بعد عشر سنوات من المجزرة ، يعود سميح القاسم — بعد عشر سنوات أيضاً — الى المكان ذاته في ديوانه « دمي على كفي » :

. . . وزهيرات من البرقوقِ في صدرِ امرأةْ
وعيون مطفأةْ
وعويل غارق في رهبةِ المأساةِ عائمْ
وانا ريشةُ نَسْرٍ
في مهبِّ الحزنِ والغيظ :
إله لا يساوم !

* * *

يومَ قالوا : سقطوا قتلى وجرحى
ما بكيتْ !
قلتُ : فوجٌ آخر يمضي
ومن بيتٍ لبيتْ
رحتُ أروي نبأ الغلةِ في العامِ الجديدْ
ومن المذياعِ انباءٌ عن العامِ المجيدْ :
« مصرُ بركانٌ ، وكلُّ الشعبِ يحمي بور سعيدْ
أيها الاخوة ، والنصرُ أكيدْ . . »
يوم قالوا : سقطوا قتلى وجرحى
صحتُ ، والادمعُ في عينيَ : مَرْحى
الفُ مرحى !
يومَ قالوا ، ما بكيتْ
ومضتْ بضعةُ أيامٍ على عيدِ الضحايا
وأتيتْ . .
وتلقّاني بنوكِ البسطاءْ
وتلَونا الفاتحةْ
وعلى أعينِ اطفالِكِ

يا أمَّ العيونِ الجارحةْ
يَبَسِ النهرُ وماتتْ في أغانيِّ الحمائم
وأنا ، يا كفرقاسمْ
أنا لا أنشدُ للموتِ ، ولكنْ :
ليدٍ ظلّتْ تقاومْ !

ولحنا أبو حنا قصيدة طويلة عن كفرقاسم أيضاً ، قالها بعد عامين من المجزرة . أبرز مقاطعها :

كيف العزاءُ ؟ وكيف يسلو الويلَ شعبٌ ثاكل ؟
عصفت بروحتِهِ الخطوبُ وصارعته نوازل
ما زال يحملُ جرحَه في صدرِهِ .. ويطاول
وتسيرُ في دربِ الدماء ، على خطاه ، غوائل
.. ان السبيلَ الى العزاء تكاتفٌ وتكافل
ونداء ارواحِ الضحايا : فليهبَّ الغافل !

* * *

ولهؤلاء الشعراء ، الدرويش والقاسم وابو حنا ، قصائد عن الحكم العسكري كقضية يومية يعاني عرب الارض المحتلة منها ، وعن الجواسيس الذين يندسون في التجمعات العربية ، وعن سلب الاراضي من الفلاحين العرب ، والى آخر ما هنالك من قضايا يومية .

ولسميح القاسم بالذات قصيدة لافتة للنظر : « كرمئيل » ، وهو اسم المدينة التي ابتناها الاسرائيليون في الجليل ، فوق أراض سلبوها من عرب قرى « دير الاسد » و « البعنة » و « نحف » ، ضمن خطتهم لتهويد الجليل . وقد أطلق القاسم على هذه المدينة اسم « مدينة الحقد والجوع والجماجم » :

صباحَ مساءْ
يطالعُنا وجهُها والسماءْ
ونبسمُ ، لا بسمةَ الاغبياءْ
ولكنها بسمةُ الانبياءْ
تحداهمُ صالبٌ تافهٌ
يغطي الشموسَ ببعضِ رداء . .

* * *

غداً يا قصوراً رستْ في القبور
غداً يا ملاهي
غداً يا شقاءْ
سيذكرُ هذا الترابُ سيذكر
انّا منحناهُ لونَ الدماءْ
وتذكرُ هذي الصخورُ رعاةً
بنَوها بأدعيةٍ من حداء
ونذكرُ أنّا . .

* * *

هنا سِفرُ تكوينِهم ينتهي
هنا ، سفرُ تكويننا ، في ابتداءْ !

إن الامثلة في هذا النطاق أكثر من أن تحصى ، وتتوفر منها لدينا كمية هائلة باتت تدعو بإلحاح الى اصدارها في ديوان يضم شعر المقاومة : الظاهرة الاكثر توهجاً ومعنى في حياتنا الثقافية الراهنة .

لقد كان شعر المقاومة، وأدبها على العموم ، متفائلاً منذ البدء ، ولم يكن هذا التفاؤل ضرباً في الفراغ ، أو وهماً مقامراً ، والا لتصدع خلال عشرين سنة من

الأسر والعذاب ، ولكنه كان نتاجاً معافى وشديد المراس لإدراك عميق لأبعاد المعركة وانتساباً اصيلاً لجماهيرها الحقيقية وقضاياها ، هدف المقاومة وأداتها في آن واحد .

لقد انطلق شعر المقاومة من أرض الالتزام ومن التزام الارض ، وكشف عن طريق الممارسة والمواجهة اعماقه وأبعاده ، وحقق في هذا النطاق — برغم كل المصاعب التي لا تصدق — توهجاً فخوراً من حيث المضمون والشكل على السواء ، يضعه بلا تردد في مقدمة الحركة الثقافية العربية الراهنة .

ولذلك فان أدب المقاومة ، وقد ربط نفسه الى اصوله وعرف آفاقه والتزم بارتباطاته الاصيلة ، لم يعرف ظاهرة التخلي ، ولا التنصل ، ولا العتاب والعويل ، كان يمارس ادراكه لدوره ومسؤولياته ، ولا يحجب نفسه عنها وراء « ستارة الضجر » أو المزايدة الرخيصة او المزاح الذي تزلزله أصغر ريح ، فهو لم يكن رفاهاً ، ولكنه كان دائماً « التزاماً » بالسلاح والجمال والمثل ، معاً .

وهذا وحده الذي يجعل شاعراً مثل محمود درويش ، وحده تقريباً في قارتنا العربية الشاسعة ، يتلقى كارثة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بثبات وصمود ويجعلها حافزاً :

وطني !
يعلمني حديدُ سلاسلي
عنفَ النسورِ
ورقّةَ المتفائلِ . .
ما كنتُ اعرفُ أنَّ تحتَ جلودِنا
ميلادَ عاصفةٍ
وعرسَ جداولٍ !
سَدّوا عليَّ النورَ في زنزانةٍ
فتوهجتْ في القلبِ
شمسُ مشاعلِ

كتبوا على الجدرانِ رقمَ بطاقتي
فنما على الجدرانِ
مرجُ سنابلِ
وحفرتُ بالاسنانِ رسمَك داميا
وكتبتُ اغنيةَ الظلامِ الراحلِ
أغمدتُ في لحمِ الظلامِ هزيمتي
وغرزتُ في شعرِ الضياء اناملي
والفاتحونَ على سطوحِ منازلي
لم يفتحوا الا وعودَ زلازلي
لن يبصروا الا توهجَ جبهتي
لن يسمعوا الا صريرَ سلاسلي
فاذا احترقتُ على صليبِ عبادتي
أصبحتُ قديساً
بزيِّ مقاتلِ !

الفَصْل الثالِث

نمَاذج مِنَ
الشِعر وَالأقصُوصَة وَالمسْرحيّة

الشعر

حنا أبو حنا [1]

طفل من شعبي

مهداة الى ذلك الطفل وصديقه ، اللذين تعاونا فرفع احدهما الآخر ليطل على شباك غرفة سجين ، وغالب العتمة في الداخل حتى رآني ، فحياني ثم قذف في داخل الغرفة بهذه الكلمات : «تخفش منهم .. كن شجاع » !

خلفَ القضبانِ ، من الشبّاكِ يطلُّ جبينْ
كهلالِ طفل [هَلّ] عليّ
وضاحِ الاشراقِ فتيّ
كالنعنعِ غض ، كالريحانِ شذاه حنونْ
خلفَ القضبانِ يطلُّ جبينْ
وتشعُّ تفتشُ في حلَكِ الدهليزِ عيونْ
وترفُّ كأجنحةٍ بيضاءْ
وتحوّمُ في عزمٍ ومضاءْ
تتحدّى العتمةَ ، تبحثُ عن آثارِ سجينْ

---

١ — ولد حنا أبو حنا عام ١٩٢٨ في قرية الرينة قرب الناصرة ، ودرس في الكلية العربية في القدس . عمل في التعليم ، ثم في صحيفة «الاتحاد» ومجلة «الجديد» ، ويقوم الآن بتعليم الأدب العربي في الكلية الارثوذكسية في حيفا . له بحوث أدبية ونقدية ، ويعتبر من الرعيل الطليعي المعلم ، وعلى يديه وبشعره تتلمذ معظم شعراء المقاومة العربية في فلسطين المحتلة .

خلفَ القضبانِ تشعُّ عيونْ
عينا طفلٍ لمّا يتجاوزْ عشرَ سنينْ
يتسلقُ شباكَ السجنِ
ويطلُّ لكي يبحثُ عني
ويفيضُ على أفقي الساجي أملا وحنينْ

* * *

وانا في زاوية الغرفةْ
ارقبهُ وفي قلبي لهفةْ
وتساوِرُني في الأمرِ ظنونْ :
هل جاءَ به عبثٌ وشجونْ ؟
وتطفُّلُ طفلٍ في أنْ يبصرَ شكلَ سجينْ ؟
أو أُرسل يبلغُني أمراً
يتسلقُ شباكي سرّاً
كحمامةِ يُمنٍ يحملُ لي بشرى وشؤونْ ؟
(فالشعبُ يجنّدُ بنضالِهْ
عوناً من فيلقِ اطفالِهْ
يرسلهُم كحمامٍ زاجلْ
وكتائبَ تسعى ، وتُنازلْ)
يا طيرُ بشباكي ، ما تحملُ ، يا غصنَ الزيتونْ ؟

* * *

وصمتُّ اراقبُ عينيهِ
وتشبثَ قوةِ كفّيهِ
بضلوعِ الشباكِ الأخضرْ

كمخالبِ نَسْرٍ لا يُقهرْ
وأنا أترقّبُ . . ما سيكونْ ؟
ويوشوشُ صوتٌ في قلقٍ : هل تبصرُهُ ؟
هل تبصرُهُ ؟
فيردُّ بوشوشةٍ بَرِماً : « لا أبصرُهُ
فظلامُ الغرفةِ يسترُهُ »
ويعودُ يحدّقُ في عزم
ويسودُ سكونْ
وترفرفُ ، تلمعُ ، في حَلَكِ الدهليزِ ، عيونْ

* * *

ويوشوشه الصوتُ الأولْ :
« ما بالك لا تبصرُ ؟ إنزلْ
إنزلْ وارفعني انتَ على كتفيكْ
عيناي انا في العتمةِ خيرٌ من عينيكْ
إرفعْني ، سوفَ أراه أنا . .
ثبّتْ قدميكْ »
لكن ظلٌّ على الشباكِ يطل شجين
يتحدى العتمةَ ، يبحثُ عن آثارِ سجين .

* * *

وتمرُّ على الصمتِ ثوانٍ
تتألّقُ فيها العينانِ
ويغرّدُ في فرحٍ صوتُهُ :
— « ابصرتُهْ . .

اني أبصرتُه !
في الزاويةِ هناك توارى
يجلسُ ويطاردُ أفكارا
وعلى الطاولةِ الصفراءْ
بعضُ الصحفِ ، وصحنُ حساءْ
ورغيفٌ أسودُ لم يؤكلْ
وسجايرُ بقيتْ لم تُشعلْ
وأراهُ هنالكَ يبتسمُ
ويلوحُ بيمناه قَلَمُ »

* * *

حيّى ، فأجبتُ تحيّتهُ
وكسا بالقوةِ طلعتهُ
وبصوتٍ سحريِّ الايحاءْ
منحوتٍ من ماسٍ وضّاءْ
هتفتْ شفتاهْ :
« اصمدْ ، لا تخشَهُمُ أبداً
وتشجعْ لا ترهبْ أحداً
اصمدْ ، فالنصرُ لمن صمدا »

* * *

وتدفّق في الغرفةِ حولي شلالُ رنينْ
شلالُ أحاسيسٍ هدّارْ
ينصبُّ على قلبي معطارْ
يتدفّقُ فيه الشعرُ فنونْ

* * *

وانطلقَ الطفلُ كطيرٍ طارَ عن الشباكْ
وسكنتُ تقيدني أفكاري دونَ حراكْ
ويعربدُ في الغرفةِ حولي شلالُ رنينْ
ومشاعر جامحةٌ حولي شتى وشجونْ

* * *

طفلٌ ؟
بل هو جيلُ الفجرِ
وبشائرُ ألويةِ النصرِ
وربيعٌ يعبقُ بالزهرِ
يتحدى أعشابَ الشرِّ
ويميس بأردانِ العطرِ
في حقلِ المأساةِ المرِّ
ويصونُ الاشواكَ ليدمي كفَّ الباغين !

* * *

طفلٌ من شعبي . . يا مرحى . .
طفلٌ ؟
بل هو وحيٌ يُوحى !

* * *

خلفَ القضبانِ من الشباكِ يطلُّ جبينْ
وأنا شعبٌ ، في دهليزِ الارهاقِ سجينْ
درعي صبري ، وكفاحي الصامدُ عشرَ سنينْ
وسلاحي العزمُ أصولُ به وحماي حصينْ
وجموعي تبني وحدتَها في السجنِ عرينْ

وتصدُّ بعزمٍ قهّارٍ كيدَ العادينْ
وتطلُّ تشعشعُ في حَلَكِ الدهليزِ عيونْ
عينا فجرٍ في مقلتِهِ نفحُ النِّسرينْ
وشرارُ القيدِ تحطّمُهُ أيدٍ ما حنونْ
فجرُ الحريةِ يشرقُ في سجني المأفونْ
يطأُ العتماتِ ، يبدّدُها ، ويدكُّ سجونْ
ويشعُّ على أفقي الساجي بأساً ويقينْ
وهتافاً يدفقُ في قلبي شلالَ رنينْ :
« اصمد ، لا تخشَهم أبدا
وتشجعْ لا ترهبْ أحدا
اصمدْ ، فالنصرُ لمن صمدا » !

محمود درويش [2]

موال [3]

خسرتُ حُلْماً جميلا
خسرتُ لسعَ الزنابقْ
وكان ليلي طويلا
على سياجِ الحدائقْ
وما خسرتُ السبيلا

لقد تعوّدَ كفي
على جراح الاماني
هزّي يديَّ بعنفِ
ينسابُ نهرُ الاغاني
يا أمَّ مُهري وسيفي :
« يما . . مويل الهوى
يمّا . . موَيليّا

---

٢ – ولد محمود درويش في قرية «البروة» قرب عكا عام ١٩٤١ . وهدم الاسرائيليون قريته عام ١٩٤٩ . يساري وكان قد اشترك قبل ذلك في جماعة «الارض» ، سجن ثلاث مرات (عام ١٩٦١ وعام ١٩٦٥ وعام ١٩٦٧) . يقيم حالياً في حيفا تحت الاقامة الجبرية . له الدواوين التالية : «عصافير بلا أجنحة» (١٩٦٠) . «اوراق الزيتون» (١٩٦٤) ، « عاشق من فلسطين » (١٩٦٦) ، «آخر الليل» (١٩٦٧)، ويعتزم اصدار ديوان خامس اسمه : «يوميات جرح فلسطيني» .

٣ – ١٩٦٧ .

ضربِ الخناجرْ ولا
حكمِ النذلْ فيّا »
يداكِ فوقَ جبيني
تاجانِ من كبرياءْ
اذا انحنيتُ انحنى
تلٌ وضاعتْ سماء
ولا أعودُ جديرا
بقبلةٍ . . او دُعاء
والبابُ يوصدُ دوني

قالوا : تحبُّ الجميلةْ
فقلت : حبي عبادةْ
الشّعرُ أحلى خميلة
والصدر أغلى وسادةْ
والعرس دربُ بطولةْ !

« يمّا مويل الهوى
يمّا . . مويليّا
ضربِ الخناجرْ ولا
حكمِ النذلْ فيّا »

خسرتُ نخبَ الأضاحي
وما أضعتُ الليالي
لا بأسَ ، إنّ جراحي
وردُ الرجالِ الرجالِ
ومهرجانُ الصباحِ .

الريحُ تنعسُ عندي
على جبين ابتسامهْ
والقيدُ خاتمُ مجدِ
وشامةٌ للكرامهْ
وساعدي للتحدّي . .
« يما مويل الهوى
يما مويليا
ضرب الخناجر ولا
حكم النذل فيا »

كوني على شفتيا
اسماً لكلّ الفصولِ
لم يأخذوا من يديا
الا مناخَ الحقولِ
وانتِ عندي دنيا

على يديكِ تصلي
طفولةُ المستقبلْ
وخلفَ جفنيك طفلي
يقولُ : يوميَ أجمل
وانتِ شمسي وظلي !

« يما مويل الهوى
يما مويليا
ضرب الخناجر ولا
حكم النذل فيا »

الأرضُ أمْ انتِ عندي

أم انتما توأمان
من مدّ للشمس زندي
الارضُ ، ام مقلتانِ ؟
سيانِ ، سيانِ عندي !

اذا خسرتُ الصديقةْ
فقدتُ طعمَ السنابلْ
وانْ خسرتُ الحديقةْ
ضيعتُ عطرَ الجداولْ
وضاعَ حلمُ الحقيقة !

عن الورودِ أدافعْ
شوقاً الى شفتيكِ
وعن ترابِ الشوارعْ
خوفاً على قدميكِ
وعن دفاعي ، أدافعْ

« يما مويل الهوى
يما مويليا
ضرب الخناجر ولا
حكم النذل فيا »

قال المغني [٤]

هكذا يكبرُ الشجرْ
ويذوبُ الحصى . .
رويداً رويداً
من خرير النهرْ !
المغني على طريق المدينةْ
ساهرٌ للحقِ . . كالسَّهَرْ
قال للريح في ضجرْ :
– دمريني ما دمتِ أنتِ حياتي
مثلما يدّعي القدرْ :
. . واشربيني نخبَ انتصارِ الرفات
هكذا ينزل المطرْ
يا شفاهَ المدينة الملعونةْ !

ابعدوا عنه سامعيه
والسكارى . .
وقيدوه
ورموهُ في غرفة التوقيفِ
شتموا أمّه ، وأمَّ أبيه
والمغني . .

---

٤ – ١٩٦٤ .

يتغنى بشعرِ شمسِ الخريفِ
يضمدُ الجرحَ . . بالوترْ

المغني على صليبِ الألمْ
جرحُه ساطعٌ كنجمْ
قالَ للناسِ حولهُ
كلّ شيءٍ . . سوى الندمْ :
هكذا متُّ واقفاً
واقفاً متُّ كالشجرْ

هكذا يصبحُ الصليبْ
منبراً . . أو عصا نغمْ
ومساميرُه . . وترْ !

هكذا ينزلُ المطرْ
هكذا يكبرُ الشجرْ . .

شهيد الاغنية[٥]

نصبوا الصليبَ على الجدارِ
فكوا السلاسلَ عن يدي
والسوطُ مروحة ، ودقات النعال
لحنٌ يصفرُ : سيدي !
ويقول للموتى : حذارِ !

– يا أنتَ !
قالَ نباح وحش :
اعطيكَ دربَكَ لو سجَدتَ
أمامَ عرشيَ سجدتينْ !
ولثمتَ كفيَ ، في حياء ، مرتين
أو . .
تعتلي خشبَ الصليبِ
شهيدَ أغنية . . وشمسِ !

ما كنتُ اولَ حامل اكليلَ شوكِ
لاقولَ للسمراء : ابكي !
يا من احبُّك ، شلَ ايماني ،
ولاسمكِ في فمي المغموسِ

---

٥ – ١٩٦٤ .

بالعطشِ المعفّرِ بالغبارِ
طعم النبيذِ اذا تعتّق في الجرارِ !

ما كنتُ اولَ حامل إكليلَ شوكِ
لاقولَ : إبكي !
فعسى صليبي صهوةٌ ،
والشوكُ فوقَ جبيني المنقوشِ
بالدم والندى
إكليل غارِ !
وعساي آخرَ من يقولُ :
أنا تشهيّتُ الردى !

أبي (٦)

غضَّ طرفاً عن القمرْ
وانحنى يحضنُ الترابَ
وصلى . .
لسماءٍ بلا مطرْ ،
ونهاني عن السفرْ !

أشعل البرق أوديةْ
كان فيها أبي
يربي الحجارا
من قديمٍ . . ويخلقُ الاشجارا
جلدُه ينذفُ الندى
يدُه تورقُ الحجرْ
. . فبكى في الأفق أغنيةْ :

— كان اوديسُ فارساً . .
كان في البيتِ أرغفةْ
ونبيذٌ ، وأغطيةْ
وخيولٌ ، وأحذيةْ
وأبي ، قال مرةً
حين صلى على حجرْ :

---

٦ — ١٩٦٤ .

غضَّ طرفاً عن القمرْ
واحذرِ البحرَ . . والسفرْ !

يوم كان الإله يجلدُ عبدَهُ
قلت : يا ناسُ : نكفرُ
فروى لي أبي . . وطأطأ زندهُ :

في حوارٍ مع العذابْ
كان ايوبُ يشكرُ
خالق الدودِ . . والسحابْ
خلق الجرحَ لي أنا
لا لميتٍ . . ولا صنمْ
فدعِ الجرحَ والألمْ
وأعنّي على الندمْ !

مرَّ في الأفقِ كوكبُ
نازلاً . . نازلا
وكان قميصي
بين نارٍ ، وبينَ ريحْ
وعيوني تفكرُ
برسومٍ على الترابْ
وأبي قال مرةً :
الذي ما له وطنْ
ماله في الثرى ضريحْ
. . ونهاني عن السفرْ !

الحزن والغضب[7]

الصوتُ في شفتيك لا يُطربُ
والنارُ في رئتيك لا تغلبُ
وابو أبيك على حذاء مهاجرٍ يُصلبُ
وشفاهُها تعطى سواك ، ونهدُها يحلبُ !
فعلام لا تغضبُ ؟

— ١ —

أمسِ التقينا في طريقِ الليلِ
من حانٍ لحانِ
شفتاك حاملتانِ
كلَّ انينِ غابِ السنديانِ
ورويتِ لي للمرةِ الخمسينَ
حبَّ فلانةٍ وهوى فلانِ
وزجاجة الكونياك
والخيام والسيف اليماني . .
عبثاً تخدرُ جرحكَ العربيَّ
عربدةُ القناني !
عبثاً تطوعُ يا كنارَ الليلِ
جامحةَ الاماني !
الريحُ في شفتيك

---

٧ — من «اوراق الزيتون» (١٩٦٤) .

تهدمُ ما بنيتَ من الأغاني !
فعلامَ لا تغضبُ ؟
ما دامَ صوتُك يا كنارَ الليلِ لا يطربُ !

— ٢ —

قالوا : ابتسمْ لتعيشَ
فابتسمتْ عيونُك للطريقْ
وتبرأتْ عيناك من قلبٍ يرمده الحريقْ
وحلفت لي : اني سعيدٌ يا رفيقْ
وقرأت فلسفةَ ابتساماتِ الرقيقْ :
الخمرُ والخضراءُ والجسدُ الرشيقْ !
فاذا رأيت دمي بخمركَ
كيفَ تشربُ يا رفيقْ ؟
الجمرُ في رئتيك ،
من تحتِ الرمادِ ، غداً يُفيق
فعلامَ لا تغضبُ ؟
ما دام طبعُ النارِ في جنبيك لا يغلبُ ؟

— ٣ —

القريةُ الاطلالُ
والناطورُ ، والأرضُ اليبابْ
وجذوعُ زيتوناتكمْ
أعشاشُ بومٍ أو غرابْ !
مَنْ هيأ المحراثَ هذا العامَ ؟
من ربى التّرابْ ؟

يا أنتَ !

أين أخوك ؟

اين ابوك ؟

انهما سرابْ !

من اين جئتَ ؟

أمن جدارٍ ؟

أم هبطتَ من السحابْ ؟

أترى تصونُ كرامةَ الموتى

وتطرقُ في ختامِ الليلِ بابْ ؟

وعلام لا تغضبُ ؟

ما دامَ لحمُ أبي أبيك

على حذاء الليلِ يصلبُ ؟

— ٤ —

انّا حملنا الحزنَ أعواماً

وما طلعَ الصباحْ

والحزنُ نارٌ تخمدُ الايامُ شهوتَها

وتوقظُها الرياحْ

والريحُ عندَك . . كيفَ تلجمُها

وما لك من سلاحْ

الا لقاءَ الريحِ والنيرانِ

في وطنٍ مباحْ ؟

رباعيات[8]

وطني ! لم يعطني حبيَ لكْ
غيرَ اخشابِ صليبي !
وطني ، يا وطني ، ما اجملَكْ . .
خذْ عيوني ، خذْ فؤادي ، خذْ حبيبي !

* * *

في توابيتِ أحبائي أغني
لأراجيحِ أحبائي الصغارْ !
دمُ جدّي عائدٌ لي ، فانتظرْني :
آخرُ الليلِ . . . نهارْ !

* * *

ها هنا ، يا منجلاً كان ابي
يحصدُ القمحَ به في كلِّ صيفْ
انا اسقيك ضياءَ الكوكبِ
يا رفيقَ العمرِ ، فاحصدْ كلَّ حيفْ !

* * *

ربما اذكرُ فرساناً ، وليلى بدويةْ
ورعاةً يحلبون النوقَ في مغربِ شمسِ

---

(٨) ٨ — ١٩٦٤ .

يا بلادي ! ما تمنيتُ العصورَ الجاهلية°
فغدي أجملُ من يومي وأمسي !

* * *

شقّ بالمحراثِ ثلماً بعدَ ثلمْ
زرعَ القمحَ برفقٍ ثم صلى للغمام°
هطلتْ زخةُ دمْ !
أطلقوا النار عليه . . هل سمعتم يا نيام° ؟

* * *

آخرُ الاخبارِ من مدريدَ ، انّ الجرحَ قال :
شبعَ الصابرُ صبرا !
أعدموا « غوليان » في الليلِ ، وزهر البرتقال°
لم يزلْ ينشرُ عِطرا !

نشيد للرجال[٩]

– ١ –

لأجملِ ضِفةٍ أمشي
فلا تحزنْ على قدمي
من الأشواكِ . .
ان خطاي مثلُ الشمسِ
لا تقوى بدون دمي . .

لأجملِ ضفةٍ أمشي
فلا تحزنْ على قلبي
من القرصانِ
ان فؤاديَ المعجونَ كالأرض
نسيمٌ في يدِ الحبِّ
وبارودٌ على البغضِ

لأجملِ ضِفةٍ أمشي
فلا تُشفقْ على عيني
من الصحراء . .
إن مرارةَ الحزنِ
أحلّيها بسكّرِ غابتي الخضراء
فتصبحُ مثلَ ذوبِ الخمرِ في الدنِّ !

---

٩ – ١٩٦٦ .

لأجملِ ضفةٍ أمشي
فإما يهترىء نعلي
أضعْ رمشي
نعمْ . . رمشي !
ولا أهفو الى نومٍ وأرتجفُ
لانّ سريرَ مَن ناموا
بمنتصفِ الطريقِ
كخشبةِ النعشِ !
تعالَوا يا رفاقَ القيدِ والاحزانِ
كي نمشي
لاجملِ ضفةٍ نمشي
فلنْ نُقهرْ
ولن نخسرْ
سوى النعشِ !

— ٢ —

الى الاعلى حناجرُنا
الى الاعلى محاجرُنا
الى الاعلى أمانينا
الى الاعلى أغانينا
سنصنعُ من مشانقنا
ومن صلبانِ حاضرِنا وماضينا
سلالمَ للغدِ الموعودْ
ثم نصيحُ : يا رضوان !

افتحْ بابَكَ الموصودْ !
سنطلقُ من حناجرِنا
ومن شكوى مرائينا
قصائدَ . . كالنبيذِ الحلوِ
تكرعُ في ملاهينا
وتنشدُ في الشوارعِ
في المصانعِ
في المحاجرِ
في المزارعِ
في نوادينا

سننصبُ من محاجرِنا
مراصدَ تكشفُ الابعدَ والاعمقَ والاروعْ
فلا نقشعْ
سوى الفجرِ
ولا نسمعْ
سوى النصرِ
فكلُّ تمردٍ في الارض
يزلزلُنا
وكلُّ جميلةٍ في الارض
تقبّلنا
وكلُّ حديقةٍ في الارض
نأكلُ حبةً منها
وكلُّ قصيدةٍ في الارض

إذا رقصت نخاصرُها
وكلُّ يتيمةٍ في الارض
إذا نادت نناصرُها . .

سنخرجُ من معسكرِنا
ومنفانا
سنخرجُ من مخابينا
ويشتُمنا أعادينا :
« هلا ، همج همُ ، عربُ ! »
نعمْ ! عربُ
ولا نخجلْ
ونعرفُ كيف نمسكُ قبضةَ المنجلْ
وكيف يقاومُ الأعزلْ
ونعرفُ كيفَ نبني المصنعَ العصريَّ
والمنزلْ
ومستشفى ، ومدرسةً ، وقنبلةً ، وصاروخاً . .
وموسيقى
ونكتبُ أجملَ الاشعارِ
عاطفةً ، وأفكاراً ، وتنميقا !

سميح القاسم [10]

بطاقات الى ميادين المعركة

١ – الى الاسطى سيد

يا اسطى سيّدْ
إبنِ ، وشيّدْ
شيّدْ لي السدَّ العالي
شيدْ لَكْ
أطفىءْ ظمأ الغيظِ الغالي
وامنحْنا ، وامنحْ اهلَكْ
كوباً من ماءْ

١٠– ولد عام ١٩٣٩ في مدينة الزرقاء في الضفة الشرقية من الاردن ، حيث كان والده يعمل ضابطاً في الجيش هناك ، وعادت عائلته الى الرامة (الجليل) وهو طفل ، وتلقى هناك دراسته الابتدائية ، وأكمل دراسته الثانوية بعد النكبة في الناصرة . عمل في التعليم ، ثم فصل بعد صدور ديوانه الثاني «أغاني الدروب» الذي حذفت الرقابة قصائد عديدة منه . سجن مرتين (١٩٦١ ، ١٩٦٧) وفرضت عليه الاقامة الجبرية في حيفا بعد خروجه من السجن ، بالاضافة الى أوامر اضافية تقضي بعدم مغادرته المنزل بعد الساعة السادسة مساء ، كما يتحتم عليه أن يثبت وجوده مرتين عند البوليس اثناء النهار . مسلم درزي ، ذو اتجاه يساري ، وكثير الانتاج . آخر دواوينه ، بالاضافة لـ « مواكب الشمس » (١٩٥٨) و «اغاني الدروب» (١٩٦٤) و «إرم» (١٩٦٥) و «دمي على كفي» (١٩٦٧) اسمه «دخان البراكين» وقد صدر في أول ١٩٦٨ .

وخضاراً وزهوراً وضياءْ
يا أسطى سيّدْ
أزُفَ الموعدْ
والقريةُ في الصحراءِ العطشى
تحلمْ
والبلدةُ في الثلمِ الصابرِ تحلمْ
فادفنْ أشلاءَ القمقمْ
في اشلاءِ الصخرِ المتحطمْ
وابنِ وشيدْ
يا اسطى سيدْ
باسمِ ضحايا الاهرامِ وباسمِ
الاطفالِ
إبنِ السدَّ العالي
يا صانعَ حلمِ الاجيالِ !

٢ – الى ثوار الفيتكونغ

اسمعها تهدرُ ملءَ دمي
اسمعها في الوديانِ على الغاباتِ
على القممِ
اسمع صرخاتِ الاحرارِ وقهقهةَ
الرشاشْ
اسمع غاراتِ الفاشستِ
الأوباشْ
وأصيحُ أصيحُ بلا صوتِ :

« الموتُ لآلهةِ الموتِ » !
وأحسُّ بكفي تتقلصْ
وأغيبُ لبرهةْ
وأحسُّ كأني اتربصْ
بذئابِ الغزوِ على ارضِ الجبهةْ
وأصبُّ على الأشباحِ النارَ . .
وأبكي :
« مَنْ يجرعُ في باراتِ نيويورك
الويسكي ؟
من يلقى في المقهى حلوةْ ؟
من ينشدُ في الشارع غنوةْ ؟
منْ يحرثُ في امريكا ؟ من يزرعْ
من يحرثُ في فيتنام ويزرعْ ؟
من يبقى في المصنعْ
من يبقى ؟

يا آلهة الموتِ الحمقى في امريكا
يا آلهةَ الموتِ الحمقى ! »
تجلجلُ ملء دمي
في الوديانِ على الغاباتِ على القممِ
غاراتُ الفاشستِ الاشرارْ
وأصيحُ أصيحُ بملء فمي :
« الموتُ لآلهة الموتِ ! »

وصباحُ النصرِ مشعٌ في أعينكم
يا ثوارَ فيتكونغ الاحرارْ !

٣ – الى نجيب محفوظ

عاشوا ، لم تصحبْهم كلمةْ
ماتوا ، لم تصحبهم كلمةْ
فالفصحى والاوراقُ المصقولةُ
والانشاءْ

والحبرُ الغالي والاقلامُ الفضيةْ
كانت مسبيةْ
يلهو بمفاتِنها النبلاءْ
والناسُ البسطاءْ
عاشوا ، لم تصحبْهم كلمةْ
ماتوا لم تصحبْهم كلمةْ
فاغرفْ من أعماقِ البئرِ
العذراءْ
واسق العاملَ والفرانَ واطفالَ
الحارةْ
فالناسُ ظماءْ
أكتبْ عن شحذِ الهمّةْ
واكتبْ عن أحلام الامةْ
منارةْ
طوبى للحرفِ الشامخِ في الليلِ
والعارُ لابراجِ العاجِ المنهارةْ
وسبايا النبلاءْ !

٤ – الى كاسترو

قَدَماً قَدَماً في هذا الدرب
يا حاطمَ اغلالَ الشعب
قَدَماً يا أولَ شعلةْ
في عتمةِ امريكا المحتلةْ
قدماً ، ما دامت في البيت
أشتاتُ الاوباشِ الفاشست
قدماً : الفجرُ وقضبانُ السكرْ
اسلحةٌ ليست تقهرْ
يا غوثَ الجزُرِ المنهوبةْ
وعزاءَ الامم المنكوبةْ
راياتُ القرصانْ
ستغوصُ الى القيعان الى القيعانْ
شوهاءَ مخضبةً مغلوبةْ
باسمِ الحريةِ والانسانْ
قدماً قدماً يا شعباً في كوبا
ما عاد مسيحاً مصلوباً !

٥ – الى بول روبنسون

من أقصى اطرافِ الدنيا
ينهلُ غناؤك في بيتي
ويرفرفُ في قلبي
عصفوراً اسمرَ منفيا
من أقصى أطرافِ الدنيا

ينهل غناؤك في بيتي
يا أعمقَ صوتٍ
ينهلُ غناؤك في قلبي
يا أقسى لافتةٍ في الدربْ
يا فاضحَ جورِ الانسانِ على الانسانْ
من أقصى أطرافِ الدنيا :
« باللهِ ، خذوا أمي للبيت
كي لا تشهدَ موتي »
وتهوّمُ في عينيا
اشباحُ الكوكلوكس كلانْ
يلهونَ بصلبكَ في الميدانْ
يلهونَ بصلبي في الميدانْ
وأفيقُ على ضربةِ طبل
ويعودُ الى قلبي الايمانْ !

٦ – الى كريستوف غبانيا

ما زالَ طويلَ الاظفارِ
ما زالت تقذفُ عيناه حممَ النارِ
ما زالت تحميهِ دجيةْ
في قلبِ الادغالِ الافريقيةْ
ما زالَ يزلزلُنا حقدا لا رعبا
الوحشُ القاتلُ لومومبا
ودماءُ الكونغو ما زالت ، في كلِّ طريقْ

وصلاةَ الكونغو ما زالت ،
والليلُ عميقْ
فارفعْ شعلتَك المشبوبة
واضيءْ للامِّ المحبوبة
فالدربُ طويلٌ دونَ ضياءْ
والدربُ قصيرٌ ما دامت
في الموكبِ رايتُك الحمراء
فارفعْها ، ولتخفقْ أبداً
في الدربِ على جثثِ الشهداءْ
الدّربُ قصير
الدرب قصير !

هكذا !

مثلما تغرسُ في الصحراء نخلة
مثلما تطبعُ أمي في جبيني الجهمِ قبلة
مثلما يلقي أبي عنه العباءة
ويهجّي لأخي درسَ القراءة
مثلما تطرحُ عنها خوذَ الحربِ كتيبة
مثلما تنهضُ ساقُ القمحِ في الارضِ الجديبة
مثلما تبسمُ للعاشقِ نجمة
مثلما تمسحُ وجهَ العاملِ المجهدِ نسمة
مثلما يشمخُ بينَ الغيمِ مَصنعْ
مثلما ينشدُ بعضُ الصَحبِ مطلعْ
مثلما يبسمُ في ودٍ غريبٌ لغريبْ
مثلما يرجعُ عصفورٌ الى العشّ الحبيبْ
مثلما يحملُ تلميذٌ حقيبة
مثلما تعرفُ صحراءٌ خصوبة
هكذا تنبضُ في قلبي العروبة

لـن

واحداً تلوَ واحدِ
يسقطُ الميتونَ تباعا
فاحرسي يا بلادي الشراعا
عائدٌ فارسُ الريحِ عائدْ

* * *

قطرةٌ تلوَ قطرةٍ
يـُمطرُ الدمعُ فوقَ الصحاري
فابشري باخضرارِ
يا سهوبَ الرؤى المكفهرةْ

* * *

كان أمساً مقيتاً
داسنا باحتقارٍ وولى
وغداً لن نبيتا
مزقا تذرعُ الارضَ وَهْناً وذلاّ
قَسماً جذرُنا لن يموتا
قسماً دمنا لن يطلاّ

الى جميع الرجال الانيقين في الامم المتحدة !

أيها السادةُ من كلِّ مكانْ
ربطاتُ العنقِ في عزِّ الظهيرةْ
والنقاشاتُ المثيرةْ
ما الذي تجديه في هذا الزمانْ ؟
ايها السادةُ من كلِّ مكانْ .
نبت الطحلبُ في قلبي
وغطّى كل جدرانِ الزجاجْ
واللقاءاتُ الكثيرةْ
والخطاباتُ الغزيرةْ
والجواسيسُ ، وأقوالُ البغايا ، واللجاجْ
ما الذي تجديه في هذا الزمان ؟

* * *

ايها السادةُ
خلّوا قمرَ القردِ كما شاء يدورْ
وتعالوا !
إنني أفقدُ للدنيا الجسورْ
ودمي أصفرْ
وقلبي انهارَ في وحلِ النذورْ
ايها السادةُ من كلِّ مكانْ !

ليكنْ عاريَ طاعوناً ، وحزني أفعوانْ
أيها الأحذيةُ اللامعةُ السوداءُ من كلِّ مكانْ
نقمتي أكبرُ من صوتيَ ، والعصرُ جبانْ
وأنا . . . ما لي يدان !

عن روما

روما احترقت قبلَ قرونْ
لكنَّ الجذرَ الضاربَ في أرضِهْ
لم يفقدْ في النكبةِ معنى نبضِهْ
روما عادت . . . يا نيرون !

عن كرمئيل [١١]

« مدينة الحقد والجوع والجماجم »

صباحَ مساءْ
يطالعُنا وجهُها والسماءْ
ونبسمُ ، لا بسمةَ الاغبياءْ
ولكنها بسمةُ الانبياءْ
تحدّاهمُ صالبٌ تافهٌ
يغطي الشموسَ ببعضِ رداءْ !

غداً ، يا قصوراً رستْ في القبورْ
غداً ، يا ملاهي
غداً ، يا شقاءْ
سيذكرُ هذا التّرابُ سيذكرُ
انّا منحناه لونَ الدماءْ
وتذكرُ هذي الصخورُ رعاةً
بنوها بأدعيةٍ من حداءْ
ونذكرُ انّا . . .

هنا سِفْرُ تكوينِهم ينتهي
هنا سفرُ تكويننا في ابتداء !

١١- سلب العدو في مطالع الستينات اراضي قرى البعنة ونحف ودير الاسد العربية ليبني عليها مدينة كرمئيل اليهودية في محاولاته المتواصلة لتهويد الجليل .

التعاويذ المضادة للطائرات

نحن في عزّ الظهيرة
نصفُ قرصِ الشمسِ يبكي في الزقاقْ
والدجاجاتُ يولولن على وقعِ البساطيرِ الكبيرةْ
وأبي يحشو رصاصاتٍ غبيةْ
بينَ إلحاحِ نداءاتِ الرفاقْ :
« راحت « البروة »(١٢) يا ويلي على تلك الشقيةْ
وعلى « الليات »(١٣) يشتدُّ الخناقْ ! »

* * *

كنتُ طفلاً آنذاكْ
كنتُ أمتصُّ حليبَ التاسعةْ
وحليبَ الفاجعةْ
كنتُ جدياً حالمَ العينينِ
من حوليَ آلافُ الشباكْ
يومَ قالت ليَ أمي بارتباكْ :
« هذه الليلة لا تخلعْ ثيابَكْ
ساعةَ النومِ

١٢– «البروة» : قرية عربية هدمها الاسرائيليون عام ١٩٤٩ وحرثوا انقاضها ، تبعد عن عكا ١٥ كيلومتراً .
١٣– «الليات» : طريق بعد البروة بـ ٣ كيلومترات في اتجاه صفد ، تمركز فيها جيش الانقاذ قرب قرية مجد الكروم عام ١٩٤٨ .

ولا تخلعْ حذاءك ! »
لم أكن أفهمُ ما تعنيه بالضبطِ
ولكني بكيت !

* * *

نحن في ساعاتِ تهويمِ المساءْ
نصفُ قرصِ القمرِ المغدورِ يبكي في الزقاقْ
لم يعدْ بعدُ أبي
والشائعاتْ
عن خياناتِ القيادةْ
واندفاعُ الجيشِ ، لكنْ للوراءْ
دفعتنا للبكاءْ !

* * *

عسكرُ « الانقاذ » خرفان تولّي للشمالْ
عسكرُ « الانقاذ » يُلقون البنادقْ
في الخنادقْ
وعلى الوحلِ . .
. . يزتّون النياشينَ وشاراتِ القتالْ . .
عسكرُ الانقاذِ ، يا عارَ الرجالْ !

* * *

أقبل الفاتحُ يا أبناء « رامةْ » (١٤)

١٤ــ «الرامة» : قرية على طريق صفد تشتهر بالزيتون ، وهي مسقط رأس الشاعر .

أقبل الفاتحُ يا ناس
فلوذوا بالسلامةْ
ما الذي تجديكمُ الآنَ اناشيدُ الكرامةْ ؟
صوبوا كلَّ التعاويذِ بوجهِ الطائراتْ
ألّبوا اللهَ عليها
واقذفوها بالوصايا العشرِ
والجفرِ
وآيات السماء البيّناتْ !

* * *

كنتُ طفلاً آنذاكْ
علموني أن مجرى الارضِ في كفٍّ السماءْ
علموني أنه ، سبحانَه ، يُحيي ويفني ما يشاء
علموني أن اطيعَ الاولياءْ
علموني الدجلَ والرقصَ على الحبلِ
وإذلالَ النساءْ
علموني السحرَ والإيمانَ بالاشباحِ
والرقيةِ والتعزيم
والخوفَ إذا جاء المساءْ
علموني ما يشاؤون ولم يستنبئوني ما أشاءْ
فرسُ الخضْرِ كفيلٌ بي
وحسبي الاولياءْ !

* * *

يا أبي المهزومَ ، يا أمي الذليلةْ !
إنني اقذفُ للشيطانِ ما اورثتماني
من تعاليمِ القبيلةْ !
إنني أرفضُها تلكَ الطقوسَ الهمجيةْ
إنني اجتثُّها من جَذْرِها
تلك المراسيم الغبيةْ
إنني أبصقُ أحقادي وعاري
في وجوهِ الاولياء الصالحينْ
إنني أركلُ قاذوراتِ ذُلي وانكساري
للتكايا والدراويشِ
واقزامِ الكراسي النابحينْ !

* * *

إنني أصرخُ من قعرِ جحيمي :
يا وحولاً لصقتْ في نعلِ تاريخي العظيمْ
إنني أحكمُ بالموتِ عليكِ !
فأعدي كفناً من جلدِ أنصاف الرجالْ
واذا شئتِ ، نقوشاً وصليباً ونجوماً وهلالْ
ووصايا وابتهالْ
طرزيها بيديك !

الرعب والبيت الأخير في القصيدة ، والخفافيش

١ - الرعب

حينَ تغيبُ الشمسُ ، قالوا ، أغيبْ
في حجرةٍ من وطنْ !
أحرم ، قالوا ، من عناقِ الهمومْ
بيني وبينَ القمرْ
يرعبُهم ، أعلم ، بثُّ الضجرْ
بيني وبين النجومْ
يرعبُهم لمسي جذوعَ الشجرْ !

. . . .

وفي مغيبِ الشمسِ ، قالوا ، أغيبْ
في حجرتي يا وطنْ ،
قالوا ، أكونُ الغريبْ
وأنت ملءُ البدنْ
فمن ترى يحمل عبرَ الزمنْ ،
في قلبهِ ، وجهَكَ هذا الحبيبْ
ومن مغنّيكَ . . من ؟ !
غيري أنا . . يا وطنْ ؟ !

٢ – البيت الاخير في القصيدة

صعدوا السلّمْ . .
أسمعُ وقعَ الخطواتِ المشبوهةْ
أبصرُ تحتَ معاطِفهمْ
عنوانَ المنزلِ والفوهةْ
صعدوا السلّمْ . .
همسوا ،
ثانيهم يتقدّمْ
يعقفُ سبّابتَه . . ينقرُ بابي !

. . . .

ويلك يا هذا . . عكّرتَ الصمتْ
ويلك نفّرتَ الصورةْ
عن آخرِ بيتْ .

٣ – الخفافيش

الخفافيشُ على نافذتي ،
تمتصُ صوتي
الخفافيشُ على مدخلِ بيتي
والخفافيشُ وراء الصحْفِ . .
. . في بعض الزوايا
تتقصى خطواتي
والتفاتاتي
والخفافيشُ على المقعدِ ،

.. في الشارعِ خلفي
وعلى واجهةِ الكتبِ وسيقانِ الصبايا
كيف دارتْ نظراتي !

. . . .

الخفافيشُ على شرفةِ جاري
والخفافيشُ جهازٌ ما .. وخُبِّئ في جدارِ
والخفافيشُ على وشكِ انتحارِ

. . . .

إنني أحفر درباً للنهارِ !

توفيق زياد

كلمات عن العدوان

يا بلادي ! امسِ لم نطفُ على حفنةِ ماءْ
ولذا لن نغرقَ الساعةَ في حفنةِ ماءْ

من هنا مروا الى الشرقِ غماماً اسودَ
يطأون الزهرَ والاطفالَ والقمحَ وحباتِ الندى
ويبيضونَ عداواتٍ وحقداً وقبوراً ومدى
من هنا ، سوف يعودونَ ، وإن طال المَدى

هكذا ماتَ ، بلا نعيٍ على الرملِ شهيدْ
طلقةٌ في رأسِهِ ، صيحةُ قهرٍ ووعيدْ
حفرَ القاتلُ في مدفعه رقماً جديدا
ومضى يبحثُ ، مثل الذئبِ ، عن رقم جديدْ
وعلى بضعةِ امتار بكى طفلٌ وليدْ
عندما مرَّ على جبهتِهِ السمراء جنزيرُ حديدْ

لا تقولوا لي : انتصرْنا
إن هذا النصرَ شرٌّ من هزيمةْ
نحنُ لا ننظرُ للسطحِ ولكنا

نرى عمقَ الجريمةْ ،
لا تقولوا لي : انتصرْنا
اننا نعرفُها هذي الشطارةْ
اننا نعرفُه الحاوي الذي
يعطي الاشارة !
انه سيّدكمْ يلهثُ
في النزعِ الاخيرْ
اننا نسحبُه ، من أنفهِ ، سحبا
الى القبرِ الحقيرْ

ما الذي خبأتموهُ لغدٍ ؟
يا من سفكتم لي دمي
وأخذتم ضوءَ عيني
وصلبتم قلمي
واغتصبتم حقَّ شعبٍ آمن
لم يجرمِ . . .
ما الذي خبأتموه لغدٍ
يا من أهنتم علمي
وفتحتم في جراحاتي جراحا
وطعنتم حلمي
ما الذي خبأتموه لغدٍ
ان غداً لم يهزمِ !

انكم تحيون من عشرين عاماً
حلمَ صيفٍ ذا رواءْ

وتصيدون لأمر الغيرِ
في بحرٍ دموعٍ ودماءْ .
انكم تبنون لليوم وانّا
لغدٍ نعلي البناءْ
اننا أعمقُ من بحرٍ ، واعلى
من مصابيحِ السماءْ
ان فينا نفساً
اطول من هذا المدى الممتدّ
في قلبِ الفضاءْ

أيّ امٍ اورثتكم ، يا ترى
نصفَ القنال ؟
أيّ امٍ اورثتكم ضفةَ الاردنّ ،
سيناء ، وهاتيك الجبالْ ؟
انّ من يسلبُ حقاً بالقتالْ
كيف يحمي حقّه يوماً
اذا الميزانُ مالْ ؟

ثم . . ماذا بعدُ ؟ لا أدري ، ولكنْ
كلُّ ما أدريه أن الارضَ حبلى والسنينْ
كل ما ادريه أنّ الحقّ لا يفنى
ولا يقوى عليه غاصبون
وعلى ارضيَ هذي
لم يعمّرْ فاتحونْ

فارفعوا ايديكمُ عن شعبِنا
لا تطعموا النار حطبْ
كيف تحيون على ظهر سفينةْ
وتعادون محيطاً من لهبْ ؟

فارفعوا ايديكم عن شعبِنا
يا ايها الصمُّ الذين
ملأوا آذانَهم قطناً وطينْ
اننا للمرةِ الألف نقولْ :
نحن لا نأكلُ لحمَ الآخرين
نحن لا نذبحُ اطفالاً ولا
نصرعُ ناساً آمنين
نحن لا ننهبُ بيتا
او جنى حقلٍ
ولا نطفي عيونْ
نحن لا نسرقُ آثارا قديمةْ
نحن لا نعرف ما طعمُ الجريمةْ
نحن لا نحرقُ اسفارا
ولا نكسرُ اقلاما
ولا نبتز ضعفَ الآخرين ،
فارفعوا ايديكمُ عن شعبِنا
يا ايها الصمُّ الذين
ملأوا آذانهم قطناً وطين
اننا للمرةِ الالفِ نقول :

لا ! وحق الضوء
من هذا التّرابِ الحرّ
لن نفقدَ ذرة !
اننا لن ننحني
للنارِ والفولاذِ يوما
قيدَ شعرةْ !

كبوةٌ هذي وكم
يحدثُ أن يكبو الهمامْ
انها للخلفِ كانت
خطوةً
من أجلِ عشرٍ للأمام !

قصائد قصيرة

١ – ثلج على المناطق المحتلة

أيّ شيء يقتلُ الاصرارَ
في شعبٍ مكافحْ ؟
وطني – مهما نَسَوا –
مرّ عليه الفُ فاتحْ
ثم ذابوا
مثلما
الثلجُ
يذوبْ !

٢ – أمثـــال

عن جدّنا الاول
قد جاء في الامثالْ :
« واوي بلعْ منجل » !

* * *

كل ما تجلبُه الريحُ
ستذروه العواصفْ
والذي يغتصبُ الغيرَ
يعيشُ العمرَ
خائفْ !

٣ – شيء عابر

لستُ عرافاً ،
ولا أفتحُ في الرملِ
ولا أقرأ النجومْ
انما أعرفُ أنَّ الظلمَ
شيء عابرٌ
ليسَ يدومْ !

٤ – شجرة التوت

عندما مروا صباحاً فوقَها
همستْ شجرةُ توتْ :
إلعبوا بالنارِ ما شئتمْ
فلا
حقّ
يموتْ !

٥ – آخر مرة

عندما داسوا عليها هتفتْ
جنبَ نبعِ الماء ، زهرةْ :
ايّها المحتلُّ حدّك
هذه آخرُ مرةْ
هذه
آخرُ مرةْ !

سراب

طوّقْ طوّقْ ، وانسفْ ، واقتلْ كلَّ الأحبابْ
واحرقْ بيتي ، أحرقْ زرعي ، واحرقْ كلَّ كتابْ
فمحالٌ أن يروي ظمأ العطشانِ غديرُ سرابْ

* * *

صبراً لن ينتصرَ النابُ على بسمةِ طفلي
صبراً يا أمي ، صبراً أختي ، صبراً واحتملي
سنسمّر تلك الايدي فوقَ الابوابْ ،
وسنذبحُ ذاك الوحشَ بتلك الأنيابْ
سيغني البلبلُ ، سيعشّشُ فوقَ الاعتابْ
وسيطلعُ فجرُ الشعبِ ، ولن يطلعَه غيرُ الأحبابْ

حـادث ليـلي

فتحَ البابَ علينا . . فجأة . .
وانهارَ أرضاً كالجدارْ
كانَ في عينيه رعبٌ ،
. . . وعلى الجبهةِ فرخا جلّنارْ
وعلى الكتفِ اليسارْ
ثوبُه القطني معجونٌ مع الكتفِ اليسارْ .

. . . .

لم يقلْ شيئاً . .
. . قفزنا نحوه . .
. . مزّقَت الصمتَ امرأةٌ :
— « أينه . . ؟ ! » صاحت : « أبُ أولادي الصغار »
لم يقلْ شيئاً . . ولكنْ
طالَ من جيبهِ منديلاً معرّقْ
كان منديلاً عرفناه جميعاً
كان مخضوباً مخرّقْ
صاحت المرأةُ « أوّاهُ » وراحتْ . .
. . تتمزّقْ . .

. . . .

— « آهِ كم موت علينا هذه الأيّام أن نهربَ منه »
زفر المنهار أرضاً كالجدارْ
وعلى أسنانِه شدَّ كمن يبلعُ سكينةَ نارْ

« كنت أمشي خلفه لما سمعتُ المدفع
الرشاشَ . . أمشي كنتُ خلـ . . كانت
الليلة قمراء ، وكان النهرُ مرآةً ، وكنا
نقطعُ الجسرَ حفاة صامتينْ
مثلَ رتلٍ من لصوصٍ حذرينْ
كانتِ الليلةُ قمراء وكنا عشرةً . . عشرينَ . . خمسينْ
أنا لا أذكرُ كم . .
. . لكِ يا أرضَ العذابْ
يا بيوتَ الطينِ . . يا رائحةَ الأهلِ . .
ويا حفنةَ عشبٍ وترابْ
مثل رتلٍ من لصوصٍ لكِ كنا عائدينْ
نقطعُ الجسرَ حفاةً حذرينْ
عندما انقضوا علينا فجأةً مثلَ الذئابْ
فتحوا أفواهَ رشاشاتهم . . مترانِ كانا بيننا
آه كم موت علينا ،
هذه الأيام أن نهربَ منه ! !
لم نكنْ نحملُ حتى خنجرا
وتساقطنا على بعضٍ تساقطنا
كرفٍ من ذبابْ
وهو . . ؟ ! صحنا كلنا صيحةَ شكٍ وارتياب
وهو . . ؟ ؟
صمتٌ ،
ونشيجٌ ،
وسكاكينُ عذابْ
. . . .

– « جمعونا كلّنا في حفرتين
ورمَوا بعضَ الترابْ
لم أكن ميْتاً ولمّا تركونا
قمتُ . . كان النهرُ مرآةً وكانتْ
ليلةً حمراء غرقى في الضبابْ
وأنا أزحفُ في صمتٍ وذعرٍ وعذابْ
وعلى الأرضِ أمامي
كان منديلُه ملقى ، فعرفتُهْ ،
وحملتُهْ . . . »

. . . .

جلستْ في قرنةِ الغرفةِ تبكي امرأةٌ حبلى
وبنتٌ وصبيّ
أنتِ يا محمرّة العينين . . ما نفعُ البكاءْ
عندما نفسُ الدماءْ
لا تساوي اليومَ شيءْ ! !

* * *

آه يا رائحةَ الاهلِ . .
ويا بيتاً من الطينِ . .
ويا حفنةَ عشبٍ وترابْ
كم علينا اليومَ ..
من أجلكمُ . .
. . أن نجرعَ الموتَ . .
وألوانَ العذابْ ! !

ادفنوا أمواتكم وانهضوا

. . . .

وعلينا كان أن نشربَهُ . .

حتى الزجاجْ

كأسَنا المرَّ المُنحنىّ

* * *

وعلينا كان أن نُذبحَ

. . ذبحاً كالنعاجْ

ساعةَ التاريخ جُنَّا

* * *

وعلينا كان ان نهربَ

. . سرباً من دجاجْ

ونحسّ العارَ حتى العظم منا

* * *

انما لا بأسَ ! هذا لحمُنا جسدٌ . .

. . على البحرِ الأجاج

لضفافٍ لم تخنا أو نخنها

* * *

يا تراباً كلُّه تبرٌ
وياقوتٌ وعاجْ
حبُّنا أقوى من الحبِّ وأغنى

* * *

فادفنوا أمواتكم وانتصبوا
فغد — لو طار — لن يفلتَ منّا

* * *

نحن ما ضعنا . . ولكن
مِنْ . .
جديدٍ . .
قدْ . .
سُبِكْنا .

فوزي الأسمر (١٥)

شيء جديد

– ١ –

لا بدَّ من يومٍ جديدْ
يومٍ ،
تخافُ الشمسُ فيه من العبيدْ
والفجرُ يهزأ بالقيودْ
وبالحديدْ ،
والطفلُ يحتضنُ النشيدْ
ويدوسُ بالقدمين ثعباناً حسودْ
ويدقُّ صدرَ الارضِ ، يقتحمُ السدودْ
والطفلُ في ارواحِنا شيءٌ جديدْ .

١٥– شاعر شاب وناقد وصحفي ، أصل عائلته يرتد الى يافا ، ويعمل حالياً في صحيفة «هذا العالم» . طرد من عمله عدة مرات ولوحق ، ويكاد يكون أغزر كاتب في الارض المحتلة والملاحق الدؤوب لتطور الحركة الأدبية والثقافية فيها . نشر عدة كتب أدبية وقومية ، واعتقل في أواخر ١٩٦٣ بعد ان صودر كتابان نشرهما آنذاك وهما « محمد والمسيح » لخالد محمد خالد و «دمعة وابتسامة» لجبران خليل جبران .

— ٢ —

في كلِّ فجرٍ عندنا . . . يومٌ جديدْ
وعلى كواهلِنا حديدْ
سنزيلُ ذاكَ الصلبَ والحملَ العتيدْ
سنزيلُهُ
حتى نعانقَ فجرَ أمّتِنا الجديدْ .

— ٣ —

ما قيمةُ الانسانِ . . . في الديجورِ
في اللحنِ العتيقْ ؟
في عقرِ قبرٍ نورُه ليلٌ . . سحيقْ
في وجهِ يومٍ ،
لحنُها صوتُ النعيقْ
ما قيمةُ الانسانِ ان هجرَ الحريقْ ؟
لا شيء بعدَ الهجرِ يكفى بالجديدْ .

— ٤ —

ما قيمةُ الحبِّ الملفعِ بالنعيمْ ؟
في فجرِ يومٍ . . غائمٍ
سئمٍ . . . عقيمْ
الحبُّ قد مجَّ الغيومَ
وعانقَ الفجرَ الجديدْ
الحبُّ في ارواحِنا شيءٌ جديدْ .

المعبد القديم

في معبدي القديمِ ، لم أزلْ
ألملمُ الحروفْ
أذيبُها في موقدِ اللهبْ
اصوغُها نغمْ ،
انشودة من العزاء . . . والاملْ
ولحنُها ،
من لحنِ نارِنا ، وحبِّنا الكبيرْ
من نورِ قلبِنا المنيرْ
من جرحِنا ،
من جرحِنا الذي يلوّنُ العبيرْ
من زندِ ذاك الاسمرِ الصلبِ الذي يفجّرُ الصخورْ
من أرضِنا الثكلى ومن دمعِ الربيعِ على الزهورْ !

* * *

في المعبدِ القديمْ
عيونُ شمعِنا تذوبُ في ضجرْ
دخانُها يفيضُ . . في غضبْ
ليلثمَ الجدارْ !
ويترك الظلام بقعةً من عارِنا على جبينِ
سقفهِ القديمْ .

* * *

ما زالَ ذاكَ المعبدُ القديمْ
يغوصُ في بخورِنا ،
في كلِّ يومٍ نحرقُ البخورْ
هديةً لله
لنفسِ ربِّنا القديمْ !
وننحرُ الخرافْ
مع كلِّ فجرٍ ننحرُ الخرافْ
نذيبُها في المذبحِ القديمْ
هديةً لله
لنفسِ ربِّنا القديمْ
ويخرجُ الدخانْ
مجمعاً في حلقةِ الضبابْ
من غيرِ لونْ
من دونِ رائحةْ
كأن نارَنا رمادْ
وكبشَنا هباءْ !

* * *

في المعبدِ القديمْ
ما زالَ صوتُنا يردّدُ النشيدْ
مع الفِ الفِ تائهٍ شريدْ
لربِنا القديمْ
لنفسِ ربِّنا القديمْ
كي يقبلَ النشيدْ
ونارَنا . . . وكبشَنا السمينْ
ويقبلَ البخورْ
هديةً من معبدٍ قديمْ !

هـذي الطريـق

« قال عقبة بن نافع وهو ينظر الى المحيط بعد ان تم فتح المغرب :
والله لو أمرني الجهاد بخوض هذا المحيط بحصاني هذا لفعلت . . »

عزّتْ معاقلُنا
مشحونة بالحقدِ يغلي في مراجلِنا
وبطولة كالوردِ
تعبقُ في خمائلِنا
ومضت قوافلُنا
للمجدِ روّاها فَخارٌ من مناهلِنا
تروي عن الارضِ الخضيبةِ
بالدماءْ
وعن الكرامةِ والاباءْ
قصصاً تضوعُ على منازلِنا
نصرا بلادَ المجدِ
قلبُ المجدِ تؤويه منازلُنا
نصرا بلادَ اللهِ
روحُ اللهِ في دمِنا
اللهُ في دمِنا
الحقدُ ،
حتى تنجلي الآفاقُ عن شمسٍ
تعانقُها مشاعلُنا

انّا سليلو طارقٍ
أو من مضوا مع طارقٍ
للفتحِ عبرَ المغربِ
كلٌّ يقولُ أنا الفتى العربي
في الدمِ ثورتي وتوثّبي
حملوا للذريق الزؤامَ من السماء
من المضاء اليعربي
حرقت سفائنهم سواحلنا
انا ورثنا الحربَ
لا كان التخاذلُ في شمائلِنا
انا ورثنا صيحةً للهِ
ما زالتْ تدوي في سواحلِنا
– والله لو أمرَ الجهادُ
بخوضِ هذا البحر
لاندفعت قنابلُنا*
بالحقدِ
حتّى تنجلي الآفاقُ عن شمسٍ
تعانقُها مشاعلُنا

---

* – قنابل : جمع قنبلة وهي مجموعة من الخيل (٥٠ رأسا) .

نزيه خير (١٦)

وهم

مزارعُ الضبابِ في قلوبهمْ
وفي عيونهم ضراوةُ الحريقْ
مدّوا يدَ المصيرْ
لعالمٍ بلا مصيرْ
ورحلةُ التيارِ قصةٌ
تمرُّ في نفوسهمْ
تعودُ في مدارجِ الشقاءْ
منزوعةً . .
من كلِّ ما في الصبحِ من رجاءْ
منزوعةً من فجرِها الاصيلْ
— والوهم — لم يزلْ خلودهم . . ولم تزلْ
مزارعُ الضبابِ في قلوبهمْ
وفي عيونهمْ ضراوةُ الحريقْ . . !

١٦— نزيه خير شاعر شاب ، اسلوبه الشعري قوي ، ولكنه ينظم قصائد قصيرة ، اتجاهها الواضح غير مبلور بعد . من الشعراء الواعدين في الأرض المحتلة .

منسيّة الميلاد

ميلادُها . . ومضى بغيرِ حكايةٍ
تروي لقاءَ الناسِ بالاعيادِ
لا ضمة . . لا همسة عطرية
رضيت تراقص شمعة الميلادِ
ربيت للميلادِ حزمةَ نرجسٍ
فمضى ونرجسيَ الحزينُ يهادي
لا تحزني . . فغداةَ يصحبُكِ الندى
في نجوةٍ تهفو الى ميعادِ
وغداة آهٍ من غداة اذا هوى
فعلى طلال وثوبه انشادي
وعلى مشارف صبحه قمرية
نجلاء كحّلها النسيمُ النادي
لا تحزني . . ما كان يضني قولهم :
مسكينة . . منسية الميلاد . . !

راشد حسين [17]

الجيـــاد

في بلادِ الآخرين
يولدُ الطفلُ صغيرا
فيصبون على أيامه دفئاً ونورا
ثم يروون له من قصةِ الشمسِ
سطورا
واذا الطفلُ الذي كان صغيرا
رجلاً يصبحُ . . إنسانا كبيرا !

* * *

في قرانا يولدُ الطفلُ أميرا
فيصبون على عينيه ليلا ونذورا
وعلى جلدته الرخوةِ يبنون قصورا
واذا الطفلُ الذي كان أميرا
قزماً يصبحُ . . إنسانا صغيرا
يشربُ الوحلَ ويجترُّ القشورا

* * *

١٧– ولد راشد حسين محمود في قرية «مصمص» من قرى المثلث الشمالي عام ١٩٣٦ ، وتلقى دراسته الابتدائية في أم الفحم . يعمل الآن في الصحافة .

في بلاد الآخرين
يكبرُ الطفلُ وتنمو معه كلُّ المعاني
وعلى جبهتِه تنمو نجومٌ وأماني
في قرانا . . بين طياتِ الدخانِ . .
يكبرُ الطفلُ لكي تكبرَ بالطفلِ التهاني
ليقولوا : « أصبح المحروسُ حلماً
للحسانِ » . .
او « عريسا » صارَ . . في سن
الزواجِ ابن فلانِ

* * *

واذا جيلٌ من العرسانِ يجتاحُ
بلادي
جيلُ اطفالٍ كبارٍ . . كالجيادِ !
ملأت اذهانَهم اشباحُ تفكيرٍ رمادي
فالاماني تنتهي عندَ « سعاد »
عند اقدامِ « سعاد »
عند حِنّاء على كف « سعاد » !

* * *

ليتَ أهلي يلدون الطفلَ طفلا
ثم لا يرمونَ في عينيه وَحْلا
علّه يزهرُ في ارضِ بلادي
جيلُ فرسان جديدٌ . . في بلادي

يلدُ الاطفالُ اطفالاً صغارا
ثم يغدون رجالا . . يملأون الليلَ نارا
علني المخُ من حولي نسورا
لا عصافير يقلدن النسورا !

في بلادِ الآخرين تقلقُ الناسَ النهايةْ
في قرانا تقلقُ الناسَ البدايةْ
همهم ان تلدَ الزوجةُ مولودا ذكرْ
ليقولوا « انها بنتُ أصيل مفتخرْ . . »
« وضعت طفلا ذكرْ
وجهُه وجهُ القمرْ »
ليقولوا : « زوجُها فحلٌ عظيمْ . .
رجل »
او « جوادٌ عربي . . بطلٌ لا يخذلُ »
« ابنُه البكرُ ذكرْ
وجهُه وجهُ القمرْ » !
بعد هذا ليصر ابنُهم راعي ذبابْ
وليكن دودة ارضٍ . . كل ما فيها
ترابْ !
وليكن ابكمَ . . أعمى . . وليكن بومَ
خرابْ
وليمتْ والدُه ولتمتْ والدتُهْ
ولتمت من فرحٍ قابلتُهْ
فهو مولودٌ ذكرْ
وجهُهُ وجهُ القمرْ

امُّه بنتُ نبيلٍ . . فَرَسٌ لا تعثرُ
زوجُها فحلٌ أصيلٌ . . بطلٌ منتصرُ !

* * *

وطني . . قلْ لي متى يا وطني
مرةً تغرقُنا بالضوء لا بالوسَنِ
بعد أن أغرقتنا في عسلٍ في لبنِ
علَّ اسواقَ الجواري تتهدمْ
والجيادَ السودَ للنارِ تُقدَّمْ
علَّ ارتالَ العصافيرِ تدورْ
واذا هنَّ صقورٌ ونسورْ !

خواطر واصـــداء

وبكـــت تعزيه السمـــاءُ فزادت المنهوكَ وجدا
هل غارقٌ في اليمِّ يطلبُ من سماء الكونِ مدّا
ويريدُ أمطاراً تجمّدُ جسمَه فيزيـــدُ جهدا ؟
لا يا سماءُ ، توقّفي ! فالبائسُ المحزونُ هُدّا !

* * *

سرْ يا أخي لا تأسَ ، إن الهزء بالأرزاء أجدى
في صفحةِ التاريخِ نحن نخطُّ فوق المجدِ مجدا
سرْ جدّدِ الأملَ الوئيدَ ولا تكنْ لليأسِ عبدا !

محمود دسوقي [18]

السجن والكفاح

لن يُرهبَ ، السجنُ أحراراً لنا سُجنوا
او عُذّبوا بنواحي الأرضِ واعتُقلوا
لن يُرهبَ السجنُ آساداً مزمجرةً
لا ترهبُ النفيَ والتعذيبَ ما فعلوا
لن يُرهبَ السجنُ مَنْ أملاكُه سلبتْ
وبيتُه درست آثارُه « القللُ »
أضحى بهيمُ ، فلا أرضٌ ولا بلدٌ
ولا بيوتٌ ولا مالٌ ولا عملُ
أين العدالةُ يا مَنْ تدعون بها
أفي العدالةِ « تصريحٌ » و « معتقل » ؟
أفي العدالةِ « تركيزٌ » « مصادرةٌ »
و « حاضرٌ غائبٌ » فيها كم الرجل
ثوروا على الظلمِ والطغيانِ واتحدوا
الى متى شعبُنا للظلمِ يحتمل

١٨— محمود دسوقي من قرية الطيبة ، وافق شعره الذي ينطبع بطابع كلاسيكي محض الأحداث العربية خطوة خطوة . نشر ديوان «مع الأحرار» عام ١٩٥٩ . ثم عاد فنشر ديوان «موكب الاحرار» الذي صودر ومنع بيعه في الاسواق . يعتقد انه نشر تمثيلية اسمها «محكمة المهداوي» وقصصاً بعنوان «المجزرة الرهيبة» .

سيروا نحطّـــمُ قيـــداً قـــد عـــلاه صـــدا
ونهـــدمُ الظلـــمَ ، لا خـــوفٌ ولا وجل
مـــرت سنـــون عـــلى الاوطـــان حالكـــةٌ
فمـــا رأى ظلمنـــا آباؤنـــا الأول
« دافيدُ » فكـــرتَ ان السجـــنَ يُرهبنـــا
لن نرهبَ السجنَ والتعذيبَ . . فاعتقلوا !
هنـــا نثـــورُ عـــلى ظلـــم يحيـــقُ بنـــا
وشعبُنـــا اليـــومَ كالبركانِ يشتعل . .

شعب وخيـــام

بلادي أيكفينـــا لثـــم الترابْ
وهذي الحجـــارة بعـــدَ الغيابْ
بـــلادي انبقـــى نزيلي الخيام
انبقـــى نرافـــقُ مُرَّ العـــذابْ
أيبقـــى الشقـــاءُ حليفـــاً لنـــا
أما كنـــا في المهد صرنـــا شبابْ
أتبقـــى عـــلى البعدِ آلامنـــا
واحلامُنـــا في البعدِ شبه السرابْ
أنبقـــى نعيـــشُ بهذي الخيام
وجوفِ الكهوفِ وفوقَ الهضابْ
وارضٌ ودارٌ وزيتـــونـــةٌ
تنادي وتنـــدبُ فوق الصحابْ
تحـــنّ الى اهلهـــا النازحـــينَ
تبلّلُ بالدمـــعِ وجهَ الترابْ
بـــلادي اعلمي في دمي ثورةٌ
أنا عائـــدٌ رغمَ كلِّ الصعابْ
انا عائـــدٌ رغمَ هذي الحدود
الى دارنا بعـــد طولِ الغيابْ
أنا عائـــدٌ زغردي يا طيـــورُ
وزُفي الى الاهلِ بشرى الإيابْ

واخيراً : نوّر اللوز[19]

« في السنوات الرومانسية من صباي قرأت رواية ديكنز ، « قصة مدينتين » ، واستبطلت سدني كارتن الذي ضحى بحياته لانقاذ زوج المرأة التي احبها ، حين بادله اللباس والمكان في الباستيل ، وتحت شفرة المقصلة .

ومثل غيري من الناس لم يصمد بطل من ابطالي للبلى . بل اقبلوا وادبروا مع اقبال العمر ومع ادباره ، حتى لم يبق لي بطل سوى فيلسوف هيجو ، جرنجوار الافاق البائس ، في « احدب نوتردام » ، الذي ، حين طلبوا منه المبادلة نفسها لانقاذ ازمرالدة الغجرية الحسناء ورفض ، فسئل عما يجعله شديد التعلق بالحياة ، اجاب : سعادتي الكبرى في قضاء الايام كلها ، من الصباح الى المساء ، مع رجل عبقري هو أنا ، وهذا شيء جميل جداً » .

— والعروبة ؟

— هلا أقلعت عن العتاب والتهكم في مقابلتنا الاولى هذه ، بعد انقطاعي عنك عشرين عاماً ؟

وهذا ما اردته بالضبط حين ذكرت الاستاذ « م » بالعروبة ، وقد فاجأني بزيارة ليلية اثارت دهشتي ، وأثارت شكوكي ، ورجاني ان استمع اليه ببال طويل .

لقد كنا صديقين حميمين في سنوات الابتدائية فالثانوية . وكنا ، سوية ،

---

١٩ — الحلقة الثانية من قطعة ذات ستة فصول اسمها «سداسية الايام الستة» ، تعتبر وحدها قصة قصيرة — نشرت في «الجديد» — ايار ١٩٦٨ .

مؤسسي الجمعية السرية الاولى في مدرستنا الابتدائية لمحاربة الانجليز ، التي لم يكن فيها سوى العضوين المؤسسين ، ولم تترك أثراً سوى عادة التدخين المزمنة والتي اعتبرناها من مقتضيات العمل السري . ولبسنا النظارات الشمسية السوداء ، اخفاء لدموع الرجال ، حين احتفلنا بانهاء الدراسة الثانوية ، وتوادعنا وتواعدنا .

اذ افترقت طرقنا فيما بعد . فسافر « م » الى القدس لانهاء دراسته في الكلية العربية ، ثم رجع الى بلدنا حيث عمل مدرساً للانجليزية في مدرستها الثانوية ولا يزال في هذه الوظيفة حتى الآن .

ومنذ ان قامت اسرائيل انقطعت صلتي به انقطاعاً تاماً . وحتى المرحبا اخذ يتحاشاها حين نلتقي عرضاً في الطريق . وكانت آلمتني هذه القطيعة في بدايتها ، حتى تعودت عليها ، واسقطته من حياتي مدركاً انه من ذلك النوع من الناس ، أشبه ما يكون بامرأة كانت في عزوبيتها لا تقوم عن قراءة قصة حتى تقع على غيرها ، فلما وجدت الزوج ، لم تعد تقرأ شيئاً ، ولا قصاصات الجرائد في دورة المياه .

وصاحبنا ، الذي كنت واياه نتنغم سوية بفتوحات خالد بن الوليد ، وبمراثي المتنبي ، وبكفرانيات ابي العلاء — العروبة ، قد تزوج الوظيفة . فكيف وشأنه ان يحافظ عليها في اسرائيل حيث من مستلزمات ذلك ان تنكر كل صلة بصديقك وبقريبك اذا كان من المشاغبين على السلطة ، ولو كان أخاك ابن أمك وأبيك ؟

ثم طرق بابي فجأة ، في ذات ليلة من الليالي التي أطبقت بعد حرب الايام الستة . وقعد قبالي بعد قطيعة عشرين عاماً . وقال : استمع حتى النهاية .

فما الذي حط في قلبه أسداً ، فتجرأ على زيارتي ؟

ووصل الاستاذ « م » ما انقطع من حديثه :

— سقط سدني كارتن من ألبوم أبطالي مع شعرات شفرتي الاولى . ولكن عنوان رواية ديكنز — « قصة مدينتين » — ظل يلاحقني ويسحرني ويؤثر على ذوقي طول هذه السنين الطويلة . وكان هذا التأثير يظهر بأشكال حيرتني في بادىء

الامر . ثم استسلمت له . بل اصبحت احمله معي عاطفاً عليه ، معزاً له كما يحمل انسان تعويذة كانت والدته علقتها بعنقه منذ الطفولة .

وفي بداية عهدي بهذا التأثر الغريب شرعت في كتابة « قصة مدينتين » من تأليفي ، مدينتين من بلادنا ، حيفا والناصرة . وكتبت فصلها الاول ، فاذا القصة تنتهي به ، فطرحتها . ثم قررت ان اتخصص في موضوعين ، الانجليزية والمحاماة . ولكنني لم أفعل . وعالجت قرض الشعر بالانجليزية وبالعربية ، فقرضت الهواء ، باللغتين معاً . ويؤلمني انني لم أنجب سوى ولد واحد ، فانني راغب في ولدين اثنين رغبة شديدة . وعليك ان تسأل ابنك الذي أعلمه في المدرسة الثانوية فيخبرك انني لا أعطيهم للقراءة سوى كتابين معاً ، وشاعرين للحفظ ، وأديبين للمقارنة ، وساعتين للامتحان . وأشياء أخرى في حياتي ، لا ضرورة الى ذكرها ، تؤكد سيطرة هذه الازدواجية ، في ذلك العنوان السحري — « قصة مدينتين » — على ذوقي وعلى عقلي . ولكنك ، ولا شك ، لاحظت هذا الامر حين كنا صديقين في شبابنا . هل نسيت انكم كنتم تلقبونني بأبي الذقنين ؟

— كنت ضخماً ومنتفخ الوجنتين .

— لا . بل كنت مثلكم بذقن واحدة . وأما هذا اللقب فعلق بي لانني كنت أحب ترديد القول : « لا تهمني ذقن ممشطة او ذقن مخططة » : ذقنان ، ذقن رجل وذقن امرأة ، اثنان ، « قصة مدينتين » ، هذه هي الازدواجية ، تعويذتي التي حملتها حول عنقي منذ الصبا .

(ان صاحبي القديم هذا انسان مرتب ، في هندامه وفي كلامه . وهو مسرف في حديثه دون تكلف . فتركته على هواه كما عودته فيما مضى . خصوصا وانني دهشت من زيارته المفاجئة ، وأردت أن أستشف غرضه من هذه الزيارة . ولقد اعتقدت انني بدأت أفهم غرضه . قلت في نفسي : أحد أمرين — اما ان وازعاً من ضميره ايقظته الحرب فدفعه الآن ، بعد عشرين عاماً ، الى تبرير انقطاعه عني بهذه الازدواجية . وأما ان واحداً ما قد أرسله الي لامر ما ، وهو يريد ان يسترد صداقتي بالحديث عن هذه الازدواجية السحرية . فاحترست منه وتشوقت الى نهاية حديثه) .

فقال :

ــ لذلك لم تطل دهشتي حين ارتقت بنا السيارة ، لاول مرة بعد حرب حزيران ، في منعطفات طلعة اللبن اللولبية ، في الطريق من نابلس الى رام الله .

فلتت مني شهقة حين عبرنا المنعطف الاول ، وارتج لساني ومقود السيارة في يدي . وهتفت بزملائي الذين كانوا معي في السيارة : عشرين عاماً وأنا أحلم بهذه المنعطفات اللولبية . هذه الطلعة لم تغب عن ذاكرتي يوماً واحداً . اني أتذكر كل منعطف فيها . هي أربعة فعدوها . وهذه الجبال المشرئبة تحرس السهل الاخضر . هي عشرة فعدوها . وهذا الهواء النقي . هذا الاريج أعرفه . اني استنشق رائحة رافقتني طول العمر . هذا المكان مكاني ! .

(فهمت ! الآن فهمت لماذا جاء هذا المسكين الي بعد انقطاع عشرين عاماً . يا لصديق الصبا ، كم قسا الدهر علينا ! عذراً على شكوكي . وكدت أقوم كي أعانقه . ولكنه لم يمهلني) .

فلم ينقطع الاستاذ « م » عن حديثه :

ــ بعد الحاحي رضي زملائي بأن اوقف السيارة عند المنعطف الاخير ، الرابع . ونزلوا معي لنستنشق ذلك الهواء ولنملأ عيوننا بمشهد الجبال والسهل المحروس . واشجار اللوز تملأ السهل والجبل ، أما كان أجدر بهم أن يسموها منعطفات اللوز ؟ وكان شيء في داخلي يدعوني الى السجود . وكان شيء في عيني يذوب دمعاً . . وشعرت شعور المشاهد عجيبة تقع أمام ناظريه . وكأني أحيا مرة ثانية سني شبابي الماضية ، في مراتع صباي ، لا أراها فقط بل أحياها ، واستنشق هواءها وأحس بدماء الصبا ، مع رائحة الطابون والقطين ، تجري مشبوبة في عروقي .

ولكن زملائي لم يمهلوني . وسرعان ما أسقطوني من شواهق منعطفاتي الى واقعي في الحضيض . هذا يريد متابعة السفر حالاً لان تصاريحنا لا تنص على انه يسمح لنا بالنزول في طلعة اللبن . وهذا يتهكم على ذكرياتي عن هذه الطلعة بأنني في يوم من الايام ، قبل عشرين عاماً ، قد بولت في أحد منعطفاتها . وغير ذلك من الكلام الذي ألفناه نحن الاساتذة حين نبتعد عن طلابنا وعن زوجاتنا .

وظللت طول الطريق الى رام الله فالقدس فبيت لحم ، وفي العودة ، أهجس بهذا الامر المدهش ، واستَرحم ذاكرتي ان تستعيد ما وقع لي من أمر ، في شبابي ، في هذه الطلعة ، جعلني أقف مأخوذاً أمامها ، لا أريد مفارقتها أبداً .

ولكن دون جدوى . حتى وصلنا اليها في العودة فهبطناها دون توقف . فرآني أحد زملائي مهموماً . فوضع يده على كتفي مواسياً ، وقال : هي شبيهة بطلعة العبهرية ، في الطريق من الناصرة الى حيفا ، فلعل الامر اختلط عليك .

فرفع حجراً ثقيلاً عن صدري .

منذ حوالي عشرين عاماً وأنا اسافر الى حيفا مرتين في الاسبوع ، حيث أقدم دروساً اضافية في احدى مدارسها الثانوية ، فأمر بطلعة العبهرية ذهاباً واياباً . اقنعني زميلي بهذا التفسير البسيط ، مع علمي بانعدام الشبه بين الطلعتين ، لانني أعرف سر نفسي وضعفي بقصة المدينتين . لا شك في أن طلعة العبهرية ارتبطت دائماً في مخيلتي بطلعة اللبن . قبلت هذا التفسير ، وأزحت عبئاً ثقيلاً عن صدري .

(يا للانسان ! أيذبح في ذاكرته ذكريات لا يقوى على احتمالها ؟ كنت احسب أن فاقدي الضمير تتحجر قلوبهم ، فلا يشعرون بتأنيبه . فاذا الامر مختلف . واذا الانسان اعجز من أن يقتل ضميره ، فيقتل الذاكرة ! اذن ، لماذا جاء يحدثني بهذه الحكاية ؟) .

وقال صاحبي القديم :

ــ تذكر ان لي معارف وأصدقاء عديدين في الضفة الغربية . من ايام الدراسة وفيما بعد . أساتذة ومحامون واطباء ورجال أعمال وسياسيون ووزير ومستوزرون . ولقد زرتهم جميعاً . ووصلنا ما انقطع من ذكريات ومن صداقة . وعادوا كما كانوا قبل عشرين عاماً جزءاً عزيزاً من حياتي . ولا يمضي أسبوع الا وأزور أحدهم او يزورني . كنت في الماضي توهمت انهم نسوني ، واستحوا بي ، وانهم قطعونا من شجرة حياتهم كما يقلم الفرع الجاف لتنمو الشجرة ولتورق .

ــ ولكننا فرع اورقته الحياة .

ـ صدقت . جئتهم في بادىء الامر متعثراً ، غير متأكد من استقبالهم . فوجدت ما لم أكن أتوقعه من حنين الى صداقة قديمة ، ومن اعتزاز بها . ووجدت أنهم كانوا يتتبعون أخبارنا . وكانوا يلتقطونها من فم الطير . ووجدت انهم يضعوننا أعلى من الموضع الذي وضعنا أنفسنا فيه . وكنت رغبت في أن أخفي عنهم انطوائي في الصدفة عشرين عاماً . فاذا بهم يعرفون ذلك ويبررونه بالشدة ، ويرونني على غير ما أرى نفسي . لقد رفعوا من قدري فارتفعت . وشالوني فطالت قامتي ، فأصبح رأسي فوق الضربات .

ولذلك قلت لك انهم عادوا جزءاً عزيزاً من حياتي ، تلك التي عرفتها انت قبل عشرين عاماً .

ـ فهل زرتني الليلة بقامتك الطويلة ، علناً ؟

ـ وهل استطيع أن أزورك الا علناً !

ـ وهل ، لهذا ، زرتني ؟

ـ لا. بل لامر يقلقني ويؤرقني . قلت لك ان دهشتي لم تطل حين أهاجتني طلعة اللبن ومنعطفاتها . فقد أعدت شعوري هذا الى تعويذتي التي لازمتني طول حياتي ، الى ازدواجية تفكيري ومنطقي ، والى اتصالي المستمر بطلعة أخرى ، هي طلعة العبهرية .

وصعدت منعطفات اللبن وهبطتها عشرات المرات منذ ذلك الوقت . وحين كان الحنين الآسي الغريب اليها يدهمني كنت أعلله حالاً وأريح ضميري .

حتى جاء ذلك اليوم من أيام شباط الماضي ، حين عدت مع زوجتي وولدي من زيارة أصدقاء لنا في القدس القديمة . وكان الوقت ظهراً حين بدأنا نهبط منعطفات اللبن . وكانت براعم اللوز تتفتح . والوانها البيضاء والحمراء تتعانق في نشوة ربيعية رقصت الجبال العشرة كلها .

ـ بأية لغة نظمت هذه القصيدة ؟

ـ بلغة عيني وبلغة قلبي . وستسمعني حتى النهاية :

وظلت زوجتي تلح علي بأن اوقف السيارة ، حتى نلتقط اغصان لوز منورة تزين بها البيت . ولم أرضخ لطلبها الا في المنعطف الاخير ، الادنى ، حيث تقوم شجرة لوز عتيقة اعتقد انها كانت موجودة أيضاً في أيامي السابقة .

فنزلنا وقطعنا اربعة أغصان ابتسمت لنا وابتسمنا لها .

وحين سألتني زوجتي : هل اذا زرع غصن اللوز في التراب ينمو شجرة ، انقبض صدري وبدأت أتذكر .

هل تذكر انه في مطلع شبابنا كان لنا صديق ، احب فتاة من القدس او من بيت لحم ، من هناك ، وكنا نحب حبه ؟

— كلنا أحب ، وكنا نحب حبه .

— بل هذا الصديق كان حبه أجمل من حبنا . وكانت له قصة . وكنا في رحلة . ونزلنا أمام تلك الشجرة في باب طلعة اللبن . وكان هناك بيت . وكان فيه دجاج وابقار . والبيت لا يزال قائماً ولكنني لا أرى الدجاج ولا أرى الأبقار . واستسقينا سكانه ماء . واذا بفتيات ، في رحلة من القدس ، وهن يقطعن اغصان اللوز المنور . وكانت بينهن صاحبة صاحبنا . والتقيا ، وناولته غصن لوز منور . وفرن . هل كنت معنا ؟

— وماذا بعد ؟

— اني أذكر عنه قصة جميلة . لا أدري الآن كيف وصلت الي . فصاحبته قطعت فرعاً من الغصن وقدمته اليه واستبقت الفرع الآخر . وتعاهدا على ان يحتفظا كل بفرعه ، وان يلتقيا في الربيع القادم ، حين ينور اللوز ، فيأتي بأهله ويخطبها من أهلها . فكيف كانت نهاية قصتهما الجميلة ؟

— وما اهتمامك كل هذا الاهتمام بأمرهما ؟

— لست أدري . ولكنني احسب ان دافعاً قوياً يدفعني الى ان افتح صفحات صداقاتي القديمة ، كلها . كأنما أريد ان أشد حاضري الى روابط ماضيّ ، كلها ، حتى لا تنفصم أبداً مرة ثانية . كان ذلك الماضي فياضاً بالامل . وكان يحتضن

الدنيا وما فيها . وكان نقياً مفتوحاً كعيني طفل . وكأنني اليوم أريد ان أتعلق بخيوطه حتى انتشل نفسي من هذا الحاضر . فهل تراني غريقاً اتعلق بحبال الهواء ؟

ـــ ثم ماذا ؟

ـــ منذ حرب حزيران وانا أتجول كالملهوف بحثاً عن الاصدقاء القدامى . وكلما التقيت أحدهم تأججت لهفتي الى لقيا الآخرين . ومنذ ان تذكرت قصة صاحبنا هذا وانا أفتش عليه ، وأبحث عنه ، فلا يذكر أحد من أصدقائي قصته . وقد أوقعتني هذه اللهفة في مآزق . وكدت أن لا ألقى صديقاً من أصدقائي القدامى الا والح عليه بأن يخبرني كيف تعرف على زوجته !

ولم يبق من أصدقاء الصبا من لم أسأله عن صاحبنا هذا سواك . لذلك جئت اليك . فهل تذكره وتريحني ؟

ـــ كنت دائماً غريب الاطوار يا صاحبي . ولكنك الليلة أغرب ما كنت . فما هذه اللهفة على معرفة أمر جانبي ؟

ـــ تقول : جانبي ! انني أدرك الآن انني ما انطويت في صدفتي ، واحدودب ظهري ، الا حين قطعت الصلة بماضي . وما هو هذا الماضي ؟ ان الماضي ليس زمناً . ان الماضي هو أنت وفلان وفلان وجميع الاصدقاء . سوية رسمنا لوحة هذا الماضي . وكل منا لونها بلونه الخاص حتى جاءت على صورتها الشابة المشتعلة التي عانقت الدنيا وما فيها . ولن أعيد الصلة بهذا الماضي الا اذا تكاملت اجزاء اللوحة بجميع ألوانها . وصاحبنا هذا ، بحبه الجميل ، أراه الابتسامة في ثغر هذه اللوحة . أي ماض يبقى بدونه . وماذا يبقى من لوحة الجيوكنده اذا مسحت ابتسامتها ؟ ان قصته ، التي سيكون اللقاء ، عودة الحبيب الى حبيبته ، خاتمتها المفرحة ، والتي سيكون الفراق المزمن خاتمتها المحزنة ، أراها أصدق تعبير عن ربيعية ماضينا ، الذي أريده أن يعود كما يعود الربيع بعد كل شتاء .

ـــ اراك تعود الى قصة المدينتين ، الفرعين ، المحب وحبيبته ، النهاية المفرحة والنهاية المحزنة . أما الحياة فهي ليست خطوطاً متمايزة بل هي خطوط متشابكة . فلماذا لا يكون خيالك ، الذي أيقظه حنين ربيعي الى جبال شامخة ، قد توهم هذه

الحكاية ؟

— لقد استيقظ خيالي حقاً ، ولا أريده أن ينام مرة أخرى . لذلك ابحث عن صاحبي هذا . فهل أفهم انك لا تتذكره ؟

— دعني أحاول . فاذا تذكرته ابلغتك الامر .

وتركني الاستاذ « م » وهو مهموم كما لم أره مهموماً في حياتي . وبقيت مكاني مهموماً كما لم أكن مهموماً في حياتي . ولعدة دقائق بعد خروجه أمسكت نفسي قسراً عن اللحاق به حتى أهز ذاكرته من موتها .

ولكن ، هل استطيع احياء الاموات ؟

كيف لا أتذكر قصة الحب الجميلة التي يتلهف الاستاذ « م » على تذكر صاحبها . وكم مرة سألت نفسي : كيف يستطيع انسان ان يقتل في قلبه مثل هذا الحب ؟

وبعد حرب حزيران ، حين زرت السيدة الكريمة ، الوفية ، في القدس او في بيت لحم ، هناك ، على حد تعبير الاستاذ « م » ، وأرتني غصن اللوز الجاف ، الذي لا تزال تحتفظ به ، ويكاد يشتعل بالاحمر وبالابيض حين تستعيد قصته ، واخبرتني انه زارها مع عدد من زملائه المعلمين ، وكان طول الوقت كثير الكلام وشديد الحبور ، وانها أدخلتهم الى مكتبتها ليروا مجموعة الكتب والتحف التي جمعتها ، وانه لحظ غصن اللوز الجاف ، فسألها ما هو ، فأخبرته ان اللوز ينور في شباط ، فانتقل يحدثها عن المشمش وعن الجمعة المشمشية ، دهشت لهذا الامر أشد دهشة .

ولكنني الآن ، وبعد أن زارني الاستاذ « م » ، وحدثني بكل ما حدثني به ، فهمت كل شيء .

فاني واثق بأن الاستاذ « م » صادق في نسيانه وصادق في لهفته على ان يتذكر . فبارادة باطنية غريبة نسي حقاً انه هو نفسه صاحب قصة الحب الجميلة ، والابتسامة التي نورت صبانا .

فهل من واجبي انا ان أذكره وأريحه كما طلب مني ؟ ولماذا يجب أن أريحه ؟ وهل سأريحه حقاً ؟

اذا كانت قامته قد طالت ، كما قال لي ، فستطول يده هذه القصة ، فيقرأ . فهل حينئذ سيتذكر ، فيعيد الروابط بماضيه ، فينتشل نفسه من حاضرها ؟

وأخيراً نور اللوز ، فالتقيا . وكان الربيع يضحك . وكان القدر يقهقه .

المسرحية

توفيق فياض

بيت الجنون

(مسرحية في فصلين)

توضيح :

ستبدو المسرحية ، التي يشغلها من أولها الى آخرها بطل واحد هو سامي ، استاذ التاريخ والادب السابق ، ستبدو لاول وهلة وكأن لا علاقة لها بتيار المقاومة العربي في فلسطين المحتلة ، الا أن ذلك سيبدو خاطئاً عند التمعن بحقيقة الرموز التي صار من المعروف انها أفضل شيء يتجه له العمل الفني حين يمارس تحت ظل القمع والاحتلال .

ومع ذلك فهناك ضرورة لتسجيل بعض الملاحظات التي يمكن لها أن تساعد في فهم المسرحية على صورة أفضل :

أولاً : هنالك الكثير من المدرسين العرب في الارض المحتلة قد تعرضوا للسجن والنفي والابعاد والتسريح بسبب طبيعة الدروس التي كانوا يلقونها على تلامذتهم ، وقد يكون مؤلف المسرحية نفسه واحداً من هؤلاء المدرسين ، وهذه الحقيقة ستوضح بعض المواقف التي يقفها البطل .

ثانياً : تعرض المثقفون العرب في الارض المحتلة الى محاولات إغراء قام بها المثقفون الاسرائيليون للاشتراك معهم في وضع «قيم مشتركة» . . وثبت فيما بعد أن ذلك لم يكن الا مناورة سياسية لامتصاص النقمة العربية انكشفت للمثقفين العرب واصابتهم بخيبة أمل مرة . . هذه الحقيقة تشكل واحدة من الخلفيات التي يقف « سامي » أمامها ، وخصوصاً لدى حديثه عن « لبنى » .

ثالثاً : المفترض ان « سامي » يقف على خشبة مسرح منصوبة في فلسطين المحتلة ذاتها ، وبالتالي فان الجمهور الذي يتجه سامي بالكلام اليه في بعض مقاطع المسرحية هو بطل آخر في الاحداث ، ليس الا المستوطنين اليهود .

رابعاً : تشكل المسرحية — الى جانب ذلك كله — حلقة في الحوار الثقافي والسياسي القائم بين المثقفين العرب في الارض المحتلة ذاتها . وسنلاحظ هنا مثلا ان حديث « سامي » عن « ذلك الشاعر » الذي اغتال القمر ، في مطلع المسرحية ، موجه الى قصيدة لمحمود درويش ، الشاعر البارز في الارض المحتلة ، اسمها « قمر الشتاء » التي يقول فيها :

« سألمُّ جثتَك الشهيدةْ
واذيبُها بالملحِ والكبريتِ
ثم اعبئُها : كالشايِ
كالخمرِ الرديئةِ ، كالقصيدةْ
في سوقِ شعرٍ خائبِ
وأقولُ للشعراء :
يا شعراءَ امتِنا المجيدة !
انا قاتلُ القمرِ
الذي كنتم عبيدَهُ ! »

غ. ك.

الفصل الاول

حيفا – ليلا

في أحد الاحياء المحاذية للبحر . لا يظهر في المسرحية سوى شخص واحد هو سامي الذي كان يعمل مدرساً للتاريخ والادب .

يرفع الستار عن غرفة مظلمة تماماً . يستمر الظلام ، بينما يسمع في الخارج من خلف المسرح ، صفير ريح قوية ممزوج بشخير نائم .

ينقطع الشخير بينما تستمر الريح في هبوبها . صوت هذيان متقطع يأخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً ، وفي نفس الوقت الذي يسلط فيه الضوء الأحمر على يسار المسرح ، حيث يسير بعدها ببطء ناحية اليمين .

في يسار المسرح يظهر باب مغلق فيه مفتاح ، ثم نافذة ذات ستار قديم في الصدر . مكتبة صغيرة تحوي بعض الكتب . ساعة حائط صغيرة تشير الى العاشرة ليلا .

يستقر الضوء على مكتب في أقصى اليمين تحت ساعة الحائط الى جانب المكتبة . . ترى عليه صورة امرأة ، بعض الكتب ، واوراق مبعثرة دونما نظام معين ، تحتوي على بعض الكمبيالات المستحقة الدفع . . زجاجة خمر تكاد تكون فارغة وكأس . علبة سجائر من النوع الرديء فيها بعض اللفافات . مصباح كهربائي في طرفه الايسر ، مما يدل على انها لاحد المثقفين . في أقصى اليمين من المسرح الى جانب المكتب ، باب داخلي مغلق . . .

يسلط الضوء نهائياً على وجه رجل في مقتبل العمر ، لحيته طويلة ، ولا نظام في شعره ألبتة ، يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ويرتدي فوق ملابسه العادية ، معطفاً شتوياً طويلا رثاً . يرى مستغرقاً في نومه ، ملقياً رأسه على ذراعيه فوق مكتبه . . بينما بقي الكتاب مفتوحاً أمامه .

تتعدد الأنوار على صفحة وجهه بشكل جانبي . . أحمر . . أصفر . . أزرق . . أخضر . ثم تتكرر بترتيب منعكس الى أن تتوقف عند النور الأحمر .

يتعذب النائم في الضوء ، وكأنه يعاني كابوساً ، ثم يسلط الضوء الاصفر . وفي نفس اللحظة يصرخ بأعلى صوته بفزع ، قابضاً على عنقه بكلتا يديه مستيقظاً .

ينظر في أرجاء الغرفة مذعوراً . . بينما تأخذ يداه في الارتخاء من حول عنقه . يشعل مصباحه ذا النور العادي ، وهو لا يزال يتفحص بنظره كل شيء من حوله متحاشياً النظر الى الجمهور . يطفىء المصباح بينما يظل الضوء الأصفر يلازمه طيلة الوقت أينما وكيفما تحرك ، مستقلا عن الاضواء التي يتطلبها السيناريو .

سامي : (مشعلاً لفافة)

الكابوس . . هذا الكابوس الرهيب ! (متحسساً عنقه) مرة أخرى ! وكأن اشباح الجحيم ، انتقلت جميعها الى هنا . . لتشاركني هذا القبر المتعفن ! (محركاً عنقه) كادت أصابعه المتوحشة تخترق بلعومي .

(يشعل النور ثانية . ينظر حوله بخوف . يتوقف على الكتاب المفتوح امامه يقرأ بحزم)

انهض ، انهض يا اوزيريس !

انا ولدك حوريس . .

جئت اعيد اليك الحياة ،

جئت اجمع عظامك .

واصل اعضاءك . . .

انا حوريس الذي تكون اباه !

حوريس يعطيك عيوناً لترى ،

واذانا لتسمع ، واقداماً لتسير

وسواعد لتعمل . . .

ها هي ذي اعضاؤك صحيحة ،

وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب في عروقك !

ان لك دائماً قلبك الحقيقي ،

قلبك الماضي !

فانهض ، انهض يا اوزيريس ! !

(يغلق الكتاب وهو ما زال يردد وبحزم أكثر)

انهض يا اوزيريس . .

يا اوزيريس انهض !

(ينظر الى الرسم متأملاً ، ثم بيأس)

لبنى ! أجل لبنى ! بل التنين ! ! من يتصور ان مثل هذه الحمامة الوديعة ، تتحول الى تنين رهيب ، يغرس مخالبه المتوحشة في عنقي ؟

كدت أجن ! ! لكم تعذبني أيها الملاك التنين ! ؟ (بضيق) هيرا ! هذه اللعنة لم تمت !

(يطفىء المصباح ناهضاً بتثاقل . يدعك لفافته في المنفضة ثم يتجه نحو النافذة . بينما يسمع هبوب الريح بوضوح . يزيح الستار ناظراً الى الخارج . . بأسف)

ايه . . . لا قمر في السماء ! (يسدل الستار عامداً . يرفع يده الى أعلى ثم ينزلها بعصبية كمن ينتزع شيئاً) قد انتزعه ذلك الشاعر اللعين من الاعالي ، واغتصبه في ليلة مجنونة من ليالي الشتاء ، على الشاطىء المقفر ! (معبراً بحركة من يده) ثم . . ثم ذوبه بالملح والكبريت ! (بسخرية) هه.. القمر ! اجل . القمر بالملح والكبريت ! ! (باستغراب) بل وشربه ! كما لو كان يشرب خمرة رديئة في ليلة افلاس ! (بضيق معبراً بيديه) لماذا لم يخنقه ذلك المجنون خنقاً ؟ (ينظر الى يديه المتشابكتين بفزع) اوه . . كلا . . كلا . . (يرخي يديه وهو لا يزال يتأملهما) كنت أفقد عقلي ، لو رأيته يفعل ذلك ! مجرد ان اتصوره يفعل ! ! (يتجه ناحية مكتبه ، وهو لا يزال يتأملهما . يشعل النور ثم يقلبهما متفحصاً) خيل الي انهما ملطختان بالدماء ! اللعنة . . .

(ينظر الى الرسم بفزع . يطفىء النور ثانية . يسكب كأساً من الخمر ، ثم يغمس اصبعه في الكأس محركاً ، كمن يذوب شيئاً . يعب ما في الكأس جرعة واحدة . . يتجشأ بامتعاض)

لا بد . . . لا بد وان ذلك المجنون .. ذوّب القمر في هذه الكأس ! (باستغراب) من يدري ؟ ربما كان أحد الضالعين في الاغتيال البشري ! ربما كانت هذه العملية ، احدى تجاربه الخبيثة ، لاختراع ما هو كاف لابادة البشرية . . بطريقة أسهل مما هو متبع الآن ! مما هو متعارف عليه بين ساسة الدول ! أصحاب الحق الشرعيين ، في تقرير ما اذا كانت ، جديرة هذه البشرية باستمرارها او غير جديرة ! !

ولكن . . ولكن أي شأن لهذا الـ . . . (بأسف) يا اله السماء ! حتّى الشعراء اصبحوا . . .
(باستغراب مفكراً) ولكن . . ولكن . . (بجدية)

قمر . . زائد ملح . . زائد كبريت . . زائد خمرة رديئة . زائد جوف مجنون ملتهب . . (مفكراً) يساوي . . يساوي . . . (يتجشأ بامتعاض) يساوي فقاعات سامة . . (معبراً بحركة من يده) تتصاعد . . وتتصاعد . الى أن تملأ السماء غيوماً . . وغـ . . (ينصت الى صوت الريح ، وهو لا يزال يعبر بيده ثم يتابع بعصبية) وريحاً غريبة مقيتة . . وأشباحاً رهيبة . . . (يتقدم من النافذة . يزيح الستار بحذر وينظر الى الخارج).

لا بد وان هذا المجنون . . العالم في علم التخلص من العالم ونفسه ! لا . وانه من نسل الجن ! او . . او انه جن بنفسه ! ؟ حتّى النجوم انتزعها ؟ يا للعنة . . لم يترك لي في السماء شيئاً آنس اليه . . (عائداً الى أول المسرح) ولكن لماذا كان . . . (بضيق) لا استطيع ادراك ذلك ! لماذا كان عليه ان يختار هذه الكأس بالذات ! كأسي أنا ! ! لتكون له ولتجاربه الخبيثة مصنعاً مشؤوماً للموت ! ! منتهى الوقاحة . .

(باستغراب) كأسي أنا ! وفي بيتّي أنا ! ! منتهى . . .

(بجدية) : قمر . . زائد كبريت زائد . . الكون الخارجي زائد . . مئة مليون ميجتون زائد . . السلام العالمي . . زائد . . . (يصمت مفكراً ثم يتابع) زائد . . السلام العالمي . . يساوي . . . (جيئة وذهاباً) يساوي . . يساوي . . ناقص الانسانية . . ناقص الكرة الارضية ! (بحماس) ويساوي . بالطبع يساوي التكوين . . ناقص سبعة أيام ! (بحماس أكثر) وبالطبع انها النتيجة الصحيحة الوحيدة ! (بانتصار جالساً الى مكتبه) : هه ! كنت أظن انني لا أستطيع حل معادلة انسانية . . (مستدركاً) معادلة كيماوية واحدة ! (بجدية) لا شك ان هؤلاء العلماء يعرفون النتيجة سلفاً . ومع ذلك . . لا ينفكون عن تجاربهم لها ! ! (بضيق) وعلى حساب أشيائي الخاصة . على حسابي أنا ! (ينصت الى صوت الريح ، ثم متابعاً) الريح الغربية . . (ناظراً الى احد الكتب على مكتبه) ايه شيللي ! (بأسف) لقد جن هو الآخر . . اغتالته الريح الغربية . . ورمت به لاسماك البحر طعاماً ! من كان يتصور ان أجمل الرياح تصبح قتالة مجرمة ! وان ذلك الوجه الجميل – يا للتعاسة . . يشوهه سرطان البحر !

وان تلك العبقرية — يا للضياع — تصبح وقوداً للنار ! ! ومن أجـــل ماذا ؟ (بسخرية) العدل السياسي . . اجل . العدالة ! ! هه ! ؟ (باحتقار) « انت الوجود للخريف النابض أيتها الريح الغربية العاتية . . ذلك الذي من وجودك الخفي اوراقه ماتت وتلاحقت ، كما الاشباح تهرب من ساحر » ! (يسكب ما تبقى في الزجاجة من خمر ثم يشرب) كلهم مجانين اولئك الشعراء ! خمر الجحيم ما تسكبه ارواحهم البائسة ، الى ان تأتي على آخر رمق في وجودها ! (ينظر الى الزجاجة بيأس. ثم يضعها مردداً بخوف) وتلاحقت كما الاشباح ! الاشباح ! ! . . (يتحسس عنقه يا للعنة . . كاد يزهق روحي . ذلك الشبح المتوحش ! شبح لبنى ولا شك ! (بغضب) كلا ... كلا . . بل شبح المالك الوقح . . . (الريح بوضوح . يهب واقفاً ناحية الباب . ثم يجلس مردداً بشرود وتلعثم) عند منتصف الليل ذات مرة . . بينما في عالم الاموات زورقي ، كان لموجه يفرش الشراع . . (معبراً بيديه) يدا شيئا مخيفة .. من خلف الظلام الدامس ، اللتان امتدتا.. ثم . . ثم بكل ما فيهما من جن ، اطبقتا حول عنقي ! (بفزع) كدت افقد صوابي . . كانت تنتصب حتى السقف ! كانت تتحول وهي تضغط على عنقي ، الى تنين رهيب ! تتوقد عيناه وتلتهبان . شعرها القبيح ، الى حراشف مدببة يتحول . تنهش كل موضع في جسدي . . وفكاه المتوحشتان ، كانتا تتسعان . . وتتسعان حول جمجمتي . . (مشيراً الى رأسه) هذه . . . الهاوية بعينها ! فكّه الملتهبة . . يا للرهبة ! كنت أصرخ وأنا أتردى في أعماق الهاوية ، كنت أصرخ بأعلى صوتي ! كنت أهوي . . وأهوي ! لم أصل الى قرار ! ! (باستغراب) ولكن لماذا شيئا ؟ لماذا تنين ! ؟ (ناظراً الى يديه) اوه . . كلا . . كلا انهما ولا شك يدان انسانيتان . . لا بد وانني لا أزال انساناً . . كثيرون هم الذين يمسخون في أيامنا الى قرود ! الى ذلك النوع من الزواحف المخيفة ! ! قد . . .

(بحزم) لا . . . لا يمكن ان امسخ الى واحد منها . . يجب ان ابقى آدمياً . . يجب ! (ينظر الى يديه ثانية . . يبتسم بارتياح) كانت تقول عنهما لبنى ، انهما جميلتان كيدي الطفل ! ولكن . . .

(يصمت فجأة . ينصت الى صوت الريح ناحية الباب بفزع كمن يسمع طرقاً عليه) ولكن هذه اليد المتوحشة التي تطرق بابي ، لا يمكن أن تكون يداً آدمية !

(صوت الريح ثانية . يهب واقفاً عند اول المسرح ، مشيراً بيده جانباً ناحية الباب بغضب): ماذا ؟ . . . ألم يعد ثمة قانون يردع اولئك الاوغاد ؟ ماذا يظنون ؟ انني متاع لهم ! يقتحمون بيتي كلما شاؤوا ! ! (يتقدم قليلاً وبسرعة ناحية الباب) كلا . . . لن أرضخ لمشيئتكم أيها الاوغاد. . . (يحذر باصبعه متراجعاً) أيها البرابرة المجرمون ! (ينصت الى صوت الريح . ثم يغضب متقدماً ناحية الباب) لا بد وانه ذلك الدب . . صاحب الحان ! كلا . . . لن أستجيب لطرقاتك . . حتى ولو هشمت الباب بقبضتك المخمورة . (صوت الريح . مندفعاً بسرعة ناحية الباب) ما الذي تريده ايها الأهوج ؟ ان اموت ظمأ للخمر ؟ ولماذا ؟ لانني لا أملك ثمنها ! ؟ (بشراسة) قلت لك كلا . . . لن افتح . . حطم الباب ان استطعت ! (معبراً بيديه) انني سأكتم انفاسك بيدي هاتين . . (ينظر الى يديه المتشابكتين بفزع) اوه . . . لست مديناً لك بشيء . . . لست مديناً . . انك من دمي صنعت خمرك ! (صوت ريح خفيفة . . ينظر باستغراب ، ثم بارتياح) الى الجحيم . . أجل . . ربما ضغط شحمك المتراكم فوق قلبك عليه ، فعطل خفقاته . ربما استرحت منك ! (يجلس خلف مكتبه مشعلاً لفافة . ينفث دخانها بعصبية ناحية الرسم ، ثم يراقب الدخان حتى يتبدد من حوله . ينظر اليه بحنان ثم يأخذه اليه) لبنى . . . اين انت يا لبنى ؟ تركتني مع الآلام وحدي . لماذا ؟ قلت انك لن تتخلي عني الى الأبد ! كيف استطعت . . .

(صوت الريح ثانية . يلتفت الى النافذة بذعر) الريح المجنونة مرة أخرى . الا تكف عن هذا العويل ــ بحق الشيطان ــ ! ؟ تغتالني شيئاً فشيئاً ! ! (مصغياً) ما هذا ؟ . . انه البوم ينعق في الخارج ! كلا . . ليس البوم ذلك ! كلا . . ليس البوم ذلك؟ انها لبنى ولا شك ! أنفاس لبنى المخنوقة . . حشرجاتها ! ! (ينقر باصبعه على مكتبه) خفقات قلبها ! ! (يضع يده على صدره) بل خفقات قلبي . . لا يمكن ! مستحيل ان تكون خفقات قلبها ! ! (صوت الريح . يقفز ناحية الباب بذعر) وقع أقدام ! اقدام متوحشة ! ! تدب . . وتدب . . هؤلاء الوحوش ! لا بد وانهم . . هذه الاحذية الثقيلة !

يا الهي . . . انهم يقتربون ! يقتربون ! (بجنون متراجعاً) الى الجحيم ايها

المتسولون . . ستفتح دونكم أبوابها . . أما بابي فلا . . (مستلقياً على مكتبه باعياء)
حمدا لله . . انهم ينصرفون . . ينصرفون بعيدا ! ليأخذهم الشيطان . . . (بشرود
مصغياً الى صوت الريح الهادئة) « برفق فوق موج الغرب ، روح الله مري »
(بصمت ثم يردد ثانية) « احلام من البهجة والفزع امواجك ، رهيبة تجعلك وحبيبة »
(بارتياح معبراً بيده) رقيقة مع خاطر . . . (صوت ريح قوية . بصمت فجأة .
ثم بفزع ناحية الباب) يا إله السماء ! انه آت ! ! حذاؤه الثقيل ! خطواته المتوعدة . .
(يهب واقفاً عند اول المسرح) اجل خطواته . . اعرفها جيداً ! ذلك المالك الاحدب . .
سيقذف بي الى الشارع . . ذلك المستبد (بمرارة) القانون الى جانبه . . بل الدولة
وجميع سلطاتها ملك له . . رهن اشارته ! حتى الحرب تخوضها من أجله لو شاء !
(بغضب) اما انا . . عضو غير صالح في الدولة ! ! ولماذا ! ؟ لانني لا أملك
كرشاً مثله ! (محذراً باصبعه) لم يبق لدي شيء أيها الثور الهائج. لم يبق شيء ..
لقد سلبتم كل اشيائي بعتموها في المزاد العلني كلها ! ولكنكم ما زلتم تلاحقونني
لم يبق غير ما ابقيتم لي من هذه الكتب المتعفنة ! خذها اذا شئت . . لم اعد بحاجة
اليها . . (بسرعة نحو مكتبه) وهذه الكمبيالات المقيتة . . (يقذف بها ناحية الباب)
ها . . ماذا تظن ؟ انك ستستعبدني ؟ ! ان تجعل مني سلعة حلالا لك ، ولاعوانك !
(محذراً باصبعه) كلا . . والف كلا ! انك لن تستطيع ذلك . . أنت . . وجهاز
الدولة جميعه ! هذا الجهاز المتعفن ، الذي تديره وفقاً لاهوائك ! سأقذف بكم
الى الجحيم جميعاً . جميعاً . . هل تسمع ! ؟ لا . . لن أكون عبداً لكم . . وسأفعل
ذلك وحدي . . اجل . انني ما زلت قادراً على ذلك . . وحدي ! ! (باحتقار)
الا يكفي انكم أخرجتموني من عملي ؟ وبعد ان جردتموني من كل شيء ، لكي
أموت جوعاً ، وليسهل قهري عليكم ! ؟ ولماذا ؟ لانني اشكل عليكم وعلى مصالحكم
المقيتة خطرا ! لانني ازيف التاريخ كما تدعون ! لانني اشوه الادب ! ! اما انتم
فلا ! ؟

(بغضب) وماذا اردتم ؟ ان اعلم ابناءكم كيف يكونون ذئاباً بشرية مثلكم ؟
كيف يمتصون الدماء ! ؟ (ينصت باستغراب . بسرعة نحو النافذة . يزيح الستار
ثم ينظر خارجاً) غريب ! انه ينصرف ! يغيب في آخر الزقاق ! ! (بارتياح
عائداً الى مكتبه) حمدا لله . . . (يشعل النور ، ثم يطفئه شاهقاً بفزع) انه يعود !

يا للعنة . . . هذا الثور الهائج ! (بسرعة نحو النافذة ثانية . يطل بحذر) يا للوقاحة . . انه يتوقف ! هذا الثور . . انه يتفحص نافذتي بنظراته الخبيثة ! عيناه المتوقدتان في النور . . (يرخي الستار متراجعاً) باستطاعة هاتين العينين . . اختراق اسمك الجدران . . واحالك النوافذ ظلمة ! هاتان العينان . . . (بغضب متوقفاً) لا يوجد غيري هنا ! انني . . انني لا أعرف اين هي ! ! انني لم ار وجهها منذ ذلك اليوم الذي . . (بضعف) قالت انها لن تدعني اراها ما حييت ! (يقترب من النافذة ثانية . يزيح الستار ناظراً) يا الهي ! . . انه ينصرف ! يغيب في الزقاق مرة اخرى ! ! (عائداً الى اول المسرح) انهم يحطمون اعصابي . . هذه الحرب المقيتة معهم . . تكاد تفقدني كل رغبة في المقاومة . . انها تشل اعصابي . . تشل نفسي شيئاً فشيئاً . (بحزم) ولكنني لن استسلم لن استسلم ابداً ! !

(يلتفت ناحية الجمهور باستغراب . يتفحص الحاضرين بارتياب وكأنه يراهم لاول مرة ! يقترب منهم قليلا وهو لا يزال يتفحصهم) يا اله السماء ! انتم . . . ماذا تفعلون هنا ؟ كيف دخلتم داري بحق الشيطان ! ؟ كيف استطعتم ذلك ! ؟

(بغضب) ماذا ! الم يعد ثمة قانون في العالم ! ؟ (باستغراب) منتهى الوقاحة ! انني لا استطيع ان اتصور ! كيف يسمح شخص لنفسه دخول بيت غير بيته . ودون اذن صاحبه ! ؟ (بغضب) حتى حديقة الحيوان . . . بل والمقابر اصبح لدخولها وقت معين ! بل وثمة ابواب لها تقفل على موتاها ! ! انني . . انني لا افقه كيف تدخلون بيتي كما . كما لو كنتم تدخلون حاناً . . او . . او مرحاضاً عاماً ! ؟ (بضعف) هل مدين لكم انا بشيء ؟ (بغضب) كلا . . انني لا اسمح لكم ان تتسللوا الى بيتي . الى حياتي الخاصة ! انها ملك لي . . ولي وحدي . . (بثورة) لماذا تنظرون الي هكذا ؟ سترمونني بالجنون . . ها ! ! أليس من حقي الثورة لحريتي ستدعون بأنني اعتدي على حريتكم ! ولكن الى الجحيم . . انتم . . وحريتكم . . . تلك التي تبنونها على حطام حرية الآخرين . . حطام حريتي . . حطامي انا ! ! (برزانة) انكم تستطيعون ممارسة حقكم في الحرية . . دون قتل حريتي لو اردتم ! ان احدا لن يمنعكم من ذلك ! ! فلماذا على حساب حريتي اذن ؟ ولماذا ينبغي علي انا ، ان ادفع الثمن من حريتي ؟ هل حاولت ان اسلبكم مرة حريتكم ؟ . .

(بحزم) كلا ! انني لم افعل . . بل ولم افكر في ذلك ابدا . واذا كنتم تدعون بأنني فعلت . . فانما لتبرروا جريمتكم . . تلك التي ترتكبونها في حقي . . وليس الا . . (بارتياب) لا استطيع فهم ذلك ! لماذا تنظرون الي هكذا ؟ عليكم اللعنة . . ما هذه المهزلة التي تمثلونها ! (مشيراً الى احد الحاضرين) انت . . لماذا تنظر الي هكذا ؟ كيف دخلت بيتي ! ؟ لماذا ! ! ؟ وبأي حق فعلت ! ؟

(بغضب) لماذا لم تذهب الى أي مكان آخر ؟ الى الجحيم مثلا . . لماذا بيتي انا بالذات ! ؟ (باستغراب) يا الهي ! . . هل نظرت الى عينيك ؟ انهما تتوقدان . . انهما . . انهما . . لا بد وانها ذئبة تلك التي ارضعتك ! من يدري أي شيطان . . ذلك الذي يسكن هذه الرأس الآدمية ! ؟ (الى آخر) انظر اليه . . الا تعتقد انت الآخر انه . . انه كمن لو كان . . . (بضيق) لماذا تحدق انت الآخر بي هكذا ؟ يا للرهبة . . انك لا تختلف عنه ! (ينقل نظره بين الاثنين) انني لم اعد افرق بينكما ! (يلف الجميع بنظرات حادة) يا للعنة . . ما الذي حدث بحق الشيطان ! ؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة عندما انظر اليكم ! هل تآمرتم علي جميعاً ! ؟ (يتفحصهم بارتياب) مستحيل هل أشبهكم انا بشيء ؟ (بحزم) كلا . . كلا . . يستحيل ذلك ! انه لمريع ان . . ان . . (متراجعاً بيأس) لبنى . . . لو إنك الآن هنا يا لبنى . . كنت تقذفين بهؤلاء الذئاب الى الشارع . . الى الشارع . . . ولكنك . . ولكنك بعيدة عني الآن . . لقد رحلت بعيداً . . هجرتني . . لا بد وانك فعلت ذلك بايعاز منهم ! فقد سيطروا على رأسك الصغير . . استعبدوا غباءك ! ! (بأسف) ايه لبنى . . . (بصوت حالم) « اجمل العينين عيناها . واحلى السوسنات صدرها . . . والدمع بارع فهو في الصدر خفوق ، وهو في العين صلاة كوننا ما زال رائعاً . . » (بيأس) هكذا كنت أغني لها . . هكذا كنت اغني لها . . للبنى حبيبتي ! ولكنها اغلقت عن غنائي اذنيها وتركتني هكذا وحدي فريسة للوحدة . . يعذبني الليل ، ويأكل روحي النهار !

(بمرارة) لا . . لم يعد كوننا رائعاً . بل جحيماً لا يطاق اضحى . . (بضيق) الريح الغربية . . الاشباح . . طرقات احذية الوحوش في قلب الليل . . وحرية الذئاب الآدمية ! ! (بحزن) وشبحها . . طيفها . . ذلك الذي تطير روحي خلفه

كلما مر بي . . كما الى النار تطير الفراشة ! (كمن يرى طيفاً) « يا حبيبتي . . الى اين تخطرين ؟ فان عاشقك المخلص آت . حبيبك الذي يغني لك اجمل الالحان . . . » (ببكاء ناحية الباب كمن يفقدها) لبنى . . لبنى . . (بيأس عائداً الى مكتبه) طيفها مرة أخرى ! كم يعذبني أن أفقدها ! (يجلس الى مكتبه بعياء . ينصت الى صوت الريح الهادئة ثم يدندن بصوت حالم (انت معي . . فلتعصف الرياح . . لتقصف الرعود . . (بحنـــان) جميلاً كان صوتهـــا . . لبنى . . (بأسف) هكذا كانت تغني لي ، كلما أكون لديهـــا على شاطىء البحر . . كانت تحبني . . كنت احبها حداء النفس التائهة كان صوتها ! (ينصت الى صوت الريح ثم يردد ثانية) انت معي . . فلتعصف الرياح . . ولتهطل الثلوج . . (بشرود) مع انسام الصباح . . ودفق عبير الشمس عبر نافذتي . . كان يدلف الي ذلك الهديل الرخيم من خلف شباكها . . وعند المساء . . كنت الم ببيتها لأسمعها . . كانت دائماً تغني . . فتعلق على شباكها قلبي وذات صباح طروب رأيتها . . بحيرة الاخضرار رأيت ! تلك المترامية على هدب الافق البعيد في عينيها . وذلك الفجر الملوح في وجهها الصغير ! وتمطي الحرير ، على ياسمين الشرفات . بله الانوثة المحموم جذلان ، على تفتح القرنفل فوق صدرها ! ! (بأسف) ايه يا بحيرة الاخضرار . . يا حديقة الوجد المزهرة . . اي اعصار بدوحك مر ؟ اي تنين بنبعك يا غدائر العنبر سكن ! اي لبناي . . لبناي الضائعة . . (ببكاء) انت معي . . اجل . فلتعصف الرياح . . فلتعصف . . فلتهطل الثلوج . فلتهطل . . . انت معي . . ضمني اليك يا حبيبي . . اكثر . . اكثر . . موقد دائم الدفء قلبك لي ! . . لي ! . . . انت معي . . (بيأس) اين ذهبت كل هذه الهمسات في عصف الرياح ؟ وتلك الغمغمات على تقصف الشاطىء عند قدمينا ! كيف نسيتها يا لبنى ؟ كيف ! ؟ وكأنك لم تتفوهي قط بها ! ! (يأخذ الرسم اليه متأملاً بشرود) لبنى كما عرفتها . . (يضع الرسم متذكراً) احدى ليالي الشتاء القاسية كان ذلك . . اول اشراقة في قدري كانت . . اول شرارة في موقد قلبي ! (بحنان ومحبة ناهضاً) كبسمة الدفء اطلت من خلف متاهة عمري . رقيقة عذبة . . . فخشعت في محراب تلك الالهة الصغيرة ، في مسالك الغاب اصلي . . (راكعاً معبراً بيديه) « اجل يا حبيب القلب . . ان هو

الا حبك هذا النور الذهبي الراقص على الغصون . . وهذه الغيوم الكسلى السابحة في الفضاء . . وهذا النسيم الراكض منعشاً مني الجبين . . » (ينهض متثاقلا ناحية الجمهور (هكذا رحت أصلي لها بعد ان عرفتها . . لعشتّروت . عشتّروت الصغيرة الساذجة ! عشتّروت الحمامة . . عشتّروت الام . . وعندما كانت بشهور حملها الاولى . . (مبتسماً بسعادة) جميل ذلك . . لبنى . . (معبراً) لبنى حامل ! . . (ضاحكاً) كدت اجن . . تلك الآلهة الصغيرة . . حامل . . اله صغير يلجأ برفق الي . . الي . . لقد توردت وجنتاها حين . . (بخجل) حين رحت اتحسس ذلك التكور البديع . . زجرتني عندها خجلى . . كنت كالطفل اتوق لرؤية تلك الدمية . . دميتي التي تخبئها لي لبنى . . لقد ضربتني على يدي تردها . . (بحماس) فضممتها الي . . رحت الثم وبكل حبي كل موضع في جسمها . . خصلات شعرها . . جبينها . . اهدابها . . تورد وجنتيها . . شفتيها . . وذلك التكور البديع . . تلك الدمية المخبأة لي باحتّراص ! كانت تبعدني عنها خجلة . . (راكعاً) الى ان ركعت على قدميها الحافيتين تينك القدمين الجميلتين . . قدمي عشتّروت الصغيرة . . عشتّروت الام . . المبللتين بقطرات الفرحة من دموع سعادتي . (ناهضاً بحماس) كالظل بقيت اجلس عند قدميها . . تلك الشهور من حملها . . كنت لا افارقها . . والدة الاله . . كنت اقوم على راحتها بنفسي . . ارقب ذلك التكور يعمر بالحياة . . وبفرحة طفلة . . يوماً بعد يوم ! وعندما كانت تغفو الى جانبي . . كنت لا انام ! كنت ارقب ذلك التكور يعلو بهدوء ويهبط . . (ضاحكاً) كنت اتخيله يكبر . . ويكبر . . ومن ثم . . كما تفتح الزنبقة اجفانها ، اتصوره يتفتح ! ويطل من خلاله ذلك الوجه الصغير . . ذاك الملاك الوديع . . فأبسط راحتي لاحتضانه . . كان يفر . . ثم . . ثم يختبىء ! وتغمض الزنبقة اجفانها . . فأغمض على روعة اغفاءتها جفني ! (بسعادة) كنت سعيداً . . ملأت البيت بالدمى الصغيرة ! (بحماس) كل انواع الدمى ! نزعت عن فساتين الغيوم زركشها ، وطرزت بوشيها فساتين دماه ! الى الورود الراقصة مددت يدي . . ومن ثناياها حفنت مرح الوانها . . وزركشت بها مهده الصغير ! أجل . . حتى المهد احضرته له ! يتحتم علينا ذلك . . ان نمنح السعادة اطفالنا . . ان نمنحهم الحياة سليمة لكي يستمروا بها ان نحملهم مشعلها كما ينبغي ان يحملوه !

(بيأس) ولكنه.. ولكنه لم. . (يلتفت الى ساعة الحائط بذهول) يا إلهي ! كان علي ان أذهب ! . . لقد تأخرت ! (يلتفت ناحية النافذة منصتاً ثم بارتياح) لقد هدأت الريح . . (يتقدم منها ويزيح الستار ناظراً الى الخارج) الزقاق مقفر . . والموت كفن نوافذه ! (يتجه ناحية الباب مصلحاً من شأن معطفه بارتباك) لا بد وانها تنتظر . كانت تنتظرني في مثل هذه الساعة دائماً . . يتحتم علي ان أذهب ! (يفتح الباب ، ثم يقف به ملتفتاً الى ساعة الحائط) هذه الساعة اللعينة كم تخونني ! كان علي ان احطمها . . يجب ان احطمها ! لقد فاتني موعدي مع لبنى . . تأخرت عن زيارة طفلي ! ملعون ذلك الذي يسلم للنسيان ابناءه فلاذهب الآن . . (يخرج مغلقاً خلفه الباب) .

الفصل الثاني

يرفع الستار عن نفس الغرفة ، ونفس الاشياء في الفصل الاول . يستمر الظلام فترة وجيزة ، بينما يسمع في الخارج صوت ريح قوية .

يسلط الضوء الاحمر على ساعة الحائط . ثم على الكرسي الخالي امام المكتب . يسير الضوء ببطء من اليمين الى ان يستقر على باب الغرفة في يسار المسرح ، بينما يسمع سعال مكتوم خارج الباب ممزوجاً بخشخشة المفتاح وكأن فتحه يستعصي عليه .

يشق الباب محدثاً صريراً . ثم يدخل سامي بشكل جانبي ، ملتصقاً بدفته مضطرباً ، وهو لا يزال يسعل ، يرافقه الضوء الاحمر حتى النهاية .

(بغضب وهو يحاول اغلاق الباب ساعلا) هذه الريح المجنونة . . لا بد وان اله الريح قد جن ! عليه اللعنة . . هذا الشقي . . اللعنة على كل شيء ! (يوصد الباب من الداخل) وعلى هذا الباب اللعين ! (متأكد من ايصاده) لم يدخل الي منه غير الشقاء ! (يبتعد قليلا ثم يعود ليتأكد من ايصاده ثانية) الا تستطيع البشرية الحياة دون ابواب ! ؟ (ساعلا) اما حان لهؤلاء الجبناء الكف . . عن افتراس بعضهم البعض ! ؟ (يتجه نحو النافذة ممسداً شعره المنفوش) اي لعنة تلك التي راحت تغتال سلام الليل ، وتهتك صمته بحوافر جيادها الجنية . . وصهيلها الرهيب ! (يزيح الستار ناظراً الى الخارج) ليشمل الموت هذه المدينة الى الابد . . (يتأكد من اغلاق النافذة) الريح الغربية ! هذه الريح الرهيبة العاتية ! لم تعد هناك رمال على الشاطىء ! كدت اجن ! يا لهول ما رأته عيناي ! يا لبشاعة الاشياء ! ؟ (يزيح الستار ثانية ناظراً الى الخارج) شاطىء الموت ! لم يعد ثمة سرطان واحد في اعماق البحر ! اوه . . يا للرهبة ، امواجه المظلمة الرهيبة ، كالاشباح المفزعة كانت تزحف نحوي ! كانت ترتفع . . وترتفع . . ثم تندفع خائرة ، كانت تتلوى على قدمي بوحشية كانت قدماي تنزلقان نحو الهاوية بقوة ! كدت استسلم لطغيانها ! كدت اقفز في لجة ليلها المفزع ! (بضعف معيداً الستار) في مثل هذه السرعة ! اوه . . يا للشقاء من كان يتصور ! ؟ (بغضب متجهاً الى مكتبه)

لماذا لم تحمل هذه الريح المتوحشة ، مياه البحر معها الى الجحيم ! الى أي مكان آخر ؟ لماذا رمال الشاطىء ! ؟ أليس غير الرمال في العالم تحملها معها ! ؟

(يلتفت ناحية النافذة مشيراً) لماذا — بحق الشيطان — لم تحمل معها هذا العالم الآسن . . ربما اتت بعده بعالم افضل . . او . . او هذه المدينة الزانية ! ؟

(ناحية الجمهور بحدة) او هذا القبر . . هذا للبيت وكل اشيائه المحنطة ! ولكنها لم تفعل ! مجرد ان تتحداني . . ان . . اوه . . تلك الرمال . . يا للعنة ! (يجلس الى مكتبه باعياء ضارباً على ركبتيه) لا بد وانها ليلة من الافلاس ، تلك التي تمخضت عني ! (بصمت . . ثم بسخرية) هه . . في المرحاض ! مسكينة امي . . الم تجد غير المرحاض تسقطني فيه ؟ (بيأس) يا للتعاسة ! هل ضاقت بها الدنيا ! في المرحاض ! ؟ (بغضب) ولكن ثمة مبرر لم يكف لها ! انها تلك الطائرات المفترسة . . انها هي التي ولدتني في المرحاض ، وهي تلد الجنون بعينه ، مع مئات القنابل . . والتي كانت تصبها تلك الليلة على هذه المدينة . . ودون انقطاع ! تلك الرعود البربرية . . . وتلك الزلازل المفزعة ، هي التي تمخضت عني . . وفي المرحاض ! وكأنني . . وكأنني . . (بعصبية ناهضاً ناحية الجمهور) اي ليل من الخوف والرعب ! ؟ (مشككاً) ولكن . . أليس هو الافلاس بعينه ؟ افلاس العقل ! افلاس العالم من كل قيمه الاخلاقية ! بل افلاس الانسانية بأسرها ! ؟ (بغضب) وماذا غير ذلك يعني . . ان يستبق ذلك الجحيم مولدي ؟ ان اكون وليد خوف ورعب ! ان تنحي الخالق عصبة مجنونة من الحدادين ، والنحاسين عن ادارة مصنع الحياة . . ولتستبد هي به ! أليس الجنون بعينه ؟ بل منتهى الجنون ! ان يصبح الحداد والنحاس مسؤولين عن هذا المصنع ! (بسخرية) هه . . انا . . هه . . من صنع حداد ! ولا بد انني سأنتهي على يديه ! (بمرارة) يا للتعاسة . . انني لا استطيع تصور ذلك ! ولكنها الحقيقة . . والبرهان على ذلك ، انني ولدت في المرحاض ! (بسخرية) الحرب . . الحرب من أجل الحياة الافضل ! هه . . من اجل ان تضعني امي في المرحاض ! وقبل ان يحين مع ذلك موعدي ! اجل . من اجل ان تكون المراحيض مهود ولادة للبشرية ! ولماذا ؟ لكي احيا حياة افضل ! يا للشقاء . . (ناحية الجمهور) هل . . هل . . (توقف فجأة . يتفحص الجالسين

بارتيباب ، مشيراً ناحية الجمهور باستغراب) ماذا ؟ انتم . . الا تزالون هنا ! ؟ ماذا تفعلون هنا بحق الشيطان ! ؟ اوه . . يا للغباء ! ظننتم انني سأترك هذا البيت لكم ! بل يا للوقاحة ! منتهى الوقاحة ! كدت انسى انكم هنا ! كدت انسى تماماً ! ما كان علي ان أفعل . . يتحتم علي الا أغفل عن ذلك مطلقاً ! انكم تحتلون بيتي . . تسرقون حريتي ، ودون مبرر دون ان يردعكم قانون عن ذلك ! لا . . لا . . لن انسى مطلقاً . . أعدكم بذلك . . انه لسوء حظكم ! ولكنني سأبر بوعدي ! (بسخرية) انكم تضيقون — ولا شك — بي ذرعاً ! ها . . (بجدية) انكم على حق ! طبيعي ان يضيق المجرم بآثار جريمته ! وطبيعي ان يدفعه ذلك الى ارتكاب جريمة غيرها . . بل والتمادي في جرائمه . . حتى يتمكن أخيراً من القضاء على كل ما يذكره بجريمته الاولى ! قانون ذلك . . بل دستور هو عندكم وشريعة ! (بارتيباب) لماذا تنظرون الي هكذا ؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة حين أنظر اليكم . . او احدثكم ! ؟ هذا التجهم القبيح . . هذا الصمت الرهيب ، هذه الشراسة الساكنة في أشداقكم ! يا إلهي ! ما اسرع ان تتحول سحناتكم الى أشكال مفزعة ! الى وجوه متوحشة بشعة ! حتى انفاسكم . . ثقيلة وبطيئة ! وكأنها لهثات الذئاب المتضورة جوعاً . . فحيح الافاعي المتحرقة الى الدماء عطشاً ! (بجدية) لم أرتكب خطأ . . انها الحقيقة ! ولكني تماديت في ثرثرتي ، وكأنه لم يبق لدي ما أفعل ، ما كان علي ازعاجكم بمشكلة تخصني وحدي وتقلقني ! لا أدري ! ربما كانت تخصكم أيضاً : ؟ بل لا بد وان تخصكم . . انني لم أدعكم الى بيتي ! ولكنكم دخلتموه دونما ، إذن مني ! اقتحمتموه علي اقتحاما ! (مشيراً الى احدى الحاضرات) هل تخصك هذه المشكلة ؟ أعني . . أعني ان تكوني مجرمة . . وان تقضي على كل اثر لجريمتك ! ؟ (مستدركاً) اوه . . لم أقصد . . كنت أعني . . اعني . . ان يكون جنينك من صنع حداد . . ثم . . ثم يميته ؟ أجل . هذا ما كنت أعنيه بالضبط !

(بسرور) اشكرك . . لا يتحتم علي ذلك . . ولكنني اشكرك ! مجرد ان تفهميني . . مجرد ان تنتصري لرأيي . . مجرد ان تحاولي اقناع غيرك بصحة رأيي . . تميل بكفة الغلبة لي في النهاية . . وانتصاري ! طبيعي ان لا توافقي . . لا بد وان

يكون جنينك خلقاً انسانياً !

(بحماس متراجعاً) اي ام توافق على جنون كهذا . . ان يكون المرحاض مهداً لوليدها ؟ لا توجد ام في العالم توافق على ذلك ! يتحتم علينا جميعاً ان لا نوافق . . ان ننتصر لجميع الامهات في العالم !

(بغضب) ولكن امي . . اجل ولدتني في المرحاض . . احد في العالم كله لم ينتصر لها ! ام واحدة لم تعترض على ذلك ! ما كان يحدث - بحق الشيطان - لو انها . . لو انها تتلقفني براحتيها ! ؟ ما كان يحدث لو ان ذلك الجحيم اجتاح العالم وهي . . وهي تجلس على كرسي المرحاض ! ؟ (باحتقار) بالطبع . . طبيعي ان تضحكوا ! انكم تعتبرونها قضية خاصة . . طبيعي ان لا تشذوا ! قانون هو ان تدركوا الحقيقة بعد فوات الاوان ! هذه طبيعتكم ! نهاية العالم . . كيف يمكن لام ان تضحك من مأساة كهذه ! كيف يمكن لام ان لا تثور لامتهان امومتها ! ؟

(بحماس معبراً) أي ام لا ترغب في أن تأخذ طفلها اليها . . ان تضمه الى صدرها ، وتقبل ثغره ان تراقبه وهو يلوك ثديها بلثته اللحمية . . ويدغدغه بيديه الصغيرتين ! منتهى السعادة . . كل ام تحب ذلك !

(بحزن متراجعاً) ولكن أمي لم تحظ بذلك . . انها لم ترني ولو لمرة واحدة الثم ثديها ! في نفس اللحظات التي كانت تمنحني فيها الحياة . . كانت تفقد هي حياتها ! (بنقمة) النزيف . . النزيف الاحمر القاني اجل . انه هو الذي قتلها ، ودون ان يستطيع والدي ، ان يفعل من أجلها شيئاً ! اي شيء ! (بغضب) وما الذي كان يستطيع فعله ، وفي ذلك الجحيم الذي كان يجتاح العالم ؟ ماذا ! ؟ انه لم يكن يعلم ! ان احداً لم يستشره ! بل تآمروا عليه جميعاً . (بثورة) اجل . تآمروا عليه . . العالم بأسره . . وسيظل ذلك النزيف القاني لطخة جريمة مروعة . . تلوث يديه أبد الدهر . . العالم بأجمعه ! اجل . العالم بأسره . . هو المسؤول عن هذه المأساة الاليمة . . مأساة ولادتي ! على كاهله سيحمل وزرها الى الابد . . الى الابد ! (بضعف) اليس هو البؤس بعينه ، ان يرضع الانسان ثدياً غريباً

عنه . . ان ينشأ ويكبر مع مأساة ولادة كولادتي ! ؟ (بحزن) حتى أبي . . ذلك المسكين . . لقد جروه هو الآخر الى الموت قسراً . . كان يحمل الموت معه للآخرين ! (بحماس) انه لم يوافق مرة على ذلك ! لكنه ارغم . . لم يكن له ثمة مبرر . . انها الحرية . . الحياة الكريمة ! (بشرود) اخذني اليه يقبلني . . كان يغالب دمعه . . كنت ألهو حينها مع الاطفال . أجابني بأنه سيعود قريباً ! سألته عن سفره . . وعن تلك الملابس الرهيبة . . كان يبدو مرعباً . . (ببهجة حزينة) قال لي انه يحبني كثيراً ! (بأسف) وحين استقل السيارة . . (معبراً ببكاء) جريت خلفه . . كنت أصرخ بأعلى صوتي منادياً . . ابي . . ابي . . كان يلوح لي وهو يبتعد . . ويبتعد . . كنت لا أزال أجري خلفه . . وأجري ! رأيته يمسح دموعه وهو يلوح لي . . الى ان غابت السيارة بعيداً ! الى ان غاب والدي ! انه لم يعد بعد . . لقد غاب الى الابد ! ؟ (بضعف) لم أره منذ ذلك اليوم . . كنت في التاسعة من عمري . . في التاسعة فقط ! يا للضياع ! (بشرود يائس) وأخيراً بقيت وحدي . . لقد ذهبوا جميعاً ! امي . . والدي . . ذلك الاله الصغير طفلي . . لبنى . .

حتى لبنى تركتني مع الآلام وحدي . . لم يبق لي شيء ! لا شيء ! (يجلس الى مكتبه باعياء) لا شيء . . الريح الغربية دائمة الهبوب . . لعنة المرحاض . . المجانين . . رمال الشاطىء المتعفنة .. ومن ثم سرطان البحر ! اجل. سرطان البحر ! هذا السرطان المسعور ذلك القطيع المفزع ! لم يبق في اعماق البحر سرطان واحد ! ! كانت جميعها تزحف على الشاطىء . . كانت تغرس مناقيدها المسننة المتوحشة في أعماق الرمال . . وهي تنهش . . وتنهش . . اوه . . يا للرهبة ! (يصمت . ينصت الى صوت الريح . يدندن بشرود ثم يردد) ذهب الصيف . . ولم تعد هناك طيور تغني . . ماذا افعل الآن ، وقد تركتني وحيدا ؟ ماذا افعل الآن ، وقد تركتني وحيداً . . تركتني وحيداً ! (يدندن . ثم يصمت منصتاً الى صوت الريح) ولكن لماذا تركتني وحيداً يا لبنى ؟ لقد احببتك . . بل عبدتك ! كيف استطعت ؟ كيف ! ؟ ان تحطمي حياتي . لقد قضيت اجمل سني عمري اناضل من اجلها . . (بضعف) للا مأوى كنت . . للا طعام كان مأواي في الليل محطات القطار ، وعفن الميناء في مخازنه مع الجرذان ! وفي النهار ، في جحيم الشمس . . وزفير

المداخن الخانق ! كي اوفر الراحة بعدها لعيشي ! كان علي ان افعل ذلك لوحدي . . وحين حصلت عليها ! اياها سلبتني ! لقد سلبتني كل شيء ! ! (بغضب واقفاً) ولماذا ؟ من أجل كل ذلك الجنون الذي تماديت فيه ! (بيأس) اولئك السحرة المختالون . . لقد سلبوا عقلها . . اولئك اللصوص المتآمرون ! تلك الرأس الغبية ! احد خنجر يصوب الى قلبي . . اثقل صخرة تشد اليها رجولتي ! كيف ؟ كيف ! ؟ اني لا استطيع ان اتصور . (بشرود) يا الهي . . تلك الرأس الصغيرة ! من كان يتصور ! ! عندما عرفتها لاول مرة . . كانت بسيطة ساذجة . . رقيقة عذبة . . كان ذلك الحزن الوديع الساكن في عينيها يزيد من سحرهما . . اجابت من خلف حزنها ذات مرة . . ان لا احد في الدنيا لها ! اخبرتني بأنهم تحت الردم جميعاً . . وذات ليلة مجنونة من ليالي الحرب ! ! (بعطف) كاد قلبي يتفطر حزناً . . شعرت انها قريبة مني . . قريبة جداً ! احسست انني في امس الحاجة اليها . . لأن تكون الى جانبي . . لأنها تشاركني شيئاً ما . . مأساة ولادتي ! لعنة تيهي وتشردي ! (بأسف) ولكنها تغيرت . . تغيرت تماماً ! انها لم تعد تلك التي كنت في حاجة اليها ! تلك الساذجة الطفلة ! ! ذلك الحزن الساكن في عينيها . . لقد تغير كل شيء ! (بضيق وتَشَكّك) الى نمرة شرسة تحولت ، وفجأة ! على أطراف فكيها المفترستين . . كانت الدماء لا تنفك تقطر . . يا للتعاسة . . كان صعباً علي ان اصدق ! في الصباح تركتها ذلك اليوم . . في الصباح فقط ! وحين عدت اليها في المساء ، كان كل شيء قد تغير ! ليست العينان عينيها . . ولا الشعر شعرها ! كل شيء اصبح غير الذي كان في الصباح حين تركتها ! بحثت عن تلك الواحة الخضراء في عينيها ، فلم اجدها ! كان وجهها . . كان صحراء لون الكبريت المحرق رمالها ! حتى شعرها . . اجل شعرها ! كان على النمرة ان تستكمل شكلها تلك اللبدة الصفراء الرهيبة . . كانت تغمر رأسها ووجهها . . بل وعينيها المشعتين بحقدهما . . كانتا تتوقدان من خلالها !

(بخوف) لم اجرؤ على الاقتراب منها . . كدت افقد — يا للرهبة — في جحيم تينك العينين عقلي ! حسبت انني بنوع من عمى الالوان اصبت فجأة ! ولكنها كانت هي.. اجل هي.. النمرة الشرسة ! كانت هناك . . في زاوية البيت

تربض انه الجنون بعينه ! منتهى الجنون ! لم أجرؤ حتى على الكلام . . على استرداد لبناي . . صديقتي . . (بحنان) كان ذلك التكور الجميل . . ذلك الجنين الخالد الى رحم النمرة ولدي انا . . . يمنعني من ان اعارضها في شيء ! كنت أريد لها السعادة . . كل السعادة ، وفي كل شيء ! على حسابي . . حساب سعادتي ! اجل . هكذا كنت اعاملها دائماً ! ينبغي علينا جميعاً ، ان نعامل نساءنا الحوامل هكذا فبعضنا ذلك الذي يحملنه لنا في ارحامهن ويحرسن ! (بسعادة) هل أجمل من ان يرى الانسان بعضاً منه ينمو ويكبر ؟ يمتص الحياة ليخرج اليها ! وليملأ عليه بالسعادة عالمه ! ؟ ولكن . . ولكن . . (بيأس) كيف استطاعت ذلك ؟ كيف ! ؟ لم يحدث في التاريخ . . لقد تعلمته جيداً . اجل . لم يحدث ابداً ! نمرة واحدة لم تفترس طفلها ! اما هذه النمرة الشرسة . . النمرة مفترسة اطفالها لقد افترسته . . اجل . اغتالته ! كيف استطاعت ذلك — بحق الشيطان — ! كيف ! ؟ ان تجهضه بيديها هي ! بيديها المجرمتين فعلت ذلك ! (بغضب) كذب ذلك . . منتهى الكذب ! لم يكن أبداً ضعفاً في الدم ! لم يكن مطلقاً سوءاً في التغذية ! ابداً لم يكن ! كلهم كذابون اولئك الاطباء . . افاكون جميعاً ! بيديها المجرمتين فعلت ذلك . . وبايعاز منهم ! لقد ساعدوها على ذلك . . ولماذا ؟ لانه سيكون ولدي ! (بأسف) يا الهي . . لقد احضرت له المهد ! انه لم يره ! كيف ندع للارض بحق السماء . . ان تستقبل اطفالنا ! وقبل ان تستقبلهم مهودهم ! ؟ قبل ان يروا على درب الحياة نورها . . وهم الحريون بحمل مشعلها ! ؟ مشعلها المقدس . يا الهي . . ذلك الوجه الجميل ! تانك العينان ! (ببكاء) ذلك الاله الصغير ! ؟ كم كنت امني النفس به عزاء . . ان اراه يعبث بأشيائي . . باشياء البيت كلها ! ان يملأ عالمي هديلا عذباً . . ان اراه على الشاطىء يجري ويمرح . . في رماله الناعمة يغرس قدميه الصغيرتين . . وبيديه الطفلتين يصنع منها بيوت احلامه . ان اشاركه مرحه ولهوه . ان آخذه الى صدري ، احكي له الحكايا . قصص آلهات الاغريق والاميرات الجميلات. ان اغني له اجمل الالحان .. اغان للجمال والحب عذبة . . متناسياً في روعة السحر على بسمته ، كل مشاكل الحياة من حولي وجحيمها . . وتلك اللعنة التي لا تمحي . . لبنى ! (بحزم) يتحتم علينا ذلك ! ان نتنازل عن كل سعادة في الدنيا ، مقابل ما يمنحنا اطفالنا من سعادة ! ان

تمنحهم نفوسنا ! (مشيراً الى احدى الحاضرات باشفاق) هل رأيت قبره في الخارج ؟ هناك عند مدخل البيت ! ذلك القبر الصغير . . (بسعادة حزينة) انه جميل ! اليس كذلك ! ؟ (بأسف) لقد ذوت جميع ازهاره . . لم تعد لبنى تسقيها . . وشغلتني بمشاكلها وجنونها عنه ! مؤسف ذلك ! ولكنه ما زال جميلا ! (ببكاء) كلها جميلة . . تلك القبور التي تحوي في داخلها اطفالنا . . كلها عزيزة علينا ! (يردد بشرود) « على شواطىء العوالم اللامتناهية اطفال يحتشدون ، العاصفة تدور في الجو على غير هدى ، والسفن تغور في اليم معدومة الاثر ، والموت جوابه يترصد ، والاطفال يلعبون ، على شواطىء العوالم اللامتناهية حشد من الاطفال عظيم ! » (ببكاء) كم طويلة هي الساعات التي قضيتها . . في ضوء القمر الى جانب قبره ! لقد فقدت كل شيء بعده . . كل سعادة ! (باعياء) ولماذا ؟ لان لبنى اصبحت تؤمن بالحرية . . حرية الذئاب . . تلك التي لقنوها ! (بغضب) حرية ماذا ؟ ان تهدم حريتي لتبني على انقاضها حريتها . . ان تسترد حريتها المسروقة في تشردها وتيهها . . وما سلبتها الحرب من حقها في الحياة من حريتي انا ! اجل . . ان تنتزع رئتي ، لكي تتنفس هي بها ! لقد علموها ذلك جيداً . . اولئك الذئاب ! (بثورة) ملعونة تلك الحرية . . وملعون كل ناشد لها ! (بيأس) ألا يكفي ذلك لان يفقدني صوابي ! لان يجعلني افر بعيداً ، ولو الى الجحيم نفسه ! لقد ارادوا لي ذلك . . (بحزم) ولكنني قررت الا افعل . وان اقف في وجههم جميعاً ! بل قررت ان انتقم . . ان انتقم لنفسي ولحريتي . . ان اخلق من هذا الجحيم الذي خلقته لي لبنى ، جحيماً لها . . ولكل اولئك الذئاب . . ولكلبها الوقح . . ذلك الذي احضرته لتعوض به عن الاطفال . . وليحتل فراشي . . انني أعرف . . اجل . اعرف جيداً ان الانتقام خروج على القانون ، بينما الاعتداء مخالفة له فقط . . فانا مدرس للتاريخ ! ولكنني قررت ان انتقم . . وان انتقم بنفسي ! (بحدة) فالقانون الذي يعتدى عليه دون رادع ، ليس قانوناً هو ألبتة ! (بيأس) ولاول مرة ! اجل لاول مرة اصبحت اؤم الحان . . نعم أنا . . مدرس الادب والتاريخ ! انا الذي كنت منذ المساء آوي الى عش لبنى ! اصبحت اقضي ليلي مع السوقة في الحان اعب الخمر . . تلك الخمرة الرديئة القاتلة . . علها تنقلني بعيداً عن لبنى . . وعن كلبها ، وعذابها المبرح في جحيم قربها ! لاعود

اليها كل آخر ليل ، ثملاً مخموراً . . كنت أقذفها بكل ما يأتي الى يدي . . بل ومزقت جميع ثيابها وقذفت بها الى الشارع . . كل زينتها واشيائها . . بل كل ما يتعلق بها وبعوزها ! لكي اجعلها قعيدة البيت تموت بحقدها . . (بانتصار) لقد فعلت هي الأخرى كذلك ! ولكنه لم يعد يهمني . . لقد طردني اولئك الاوغاد من عملي لم أعد مدرس التاريخ والادب ! لم أعد أصلح لذلك ! هه . . ولماذا ! ؟ لانني اشكل على مصالحهم خطراً ! ان ابغي الحياة الكريمة لابنائهم ، هه . . خطر . . ان انقذ ابناءهم من ذلك الجنون . . ان اجنبهم من التردي في وحل آبائهم . . هه . . يا للشقاء — خطر !

(يجلس الى مكتبه باعياء . يأخذ زجاجة الخمر الفارغة اليه . . يتأملها ثم يحاول استنزاف ما فيها من خمر ، ثم يضعها بعصبية) لم يبق لي شيء . اجل . . طردني اولئك الاوغاد . . لقد قضوا على آخر عزاء لي ! ولكنني لن أخضع لهم ! ولن استسلم ابداً . . لا يمكن ان استسلم . . فلأمت جوعاً كما يبغون . يستطيعون هم شل معدتي واسكاتها . . اما لساني ، فلا ! مستحيل ان . . (يصمت فجأة . ينصت الى صوت الريح القوية بذعر) الريح الغربية مرة أخرى ! هذه الريح المجنونة العاتية . . انها تزهق روحي . . لا تهب الا لاغتيالي . . حتى الريح — يا للعنة — جندوها لصالحهم ! (بضيق) الا تكف هذه الريح — بحق جهنم — عن هبوبها ؟ لا بد وانها لم تترك على الشاطىء . . ذرة من الرمل واحدة ! (بخوف) لا بد وانها حملتها معها جميعها ، وانها كشفت عنها مرة اخرى ! اوه . . كلا . . كلا . . حتى ولو كان اله العواصف نفسه فقد . . اوه . . يا الهي ! مستحيل لا استطيع ان اتصور . . (ينصت الى صوت الريح . يقفز ناحية الباب بذعر وفزع) دبيب اقدام ! في هذا الوقت المتأخر من الليل ! ؟ يا للرهبة ! انها تدب . . وتدب . . هؤلاء الوحوش . . لا بد وانهم قد . . لا بد وانهم تبعوني الى الشاطىء ! لا بد وان ذلك الوغد . . كان يختبىء خلف المنحنى ! (متراجعاً) كلا . . لا يمكن ان يكونوا . . ان احداً لم يرني حين ذهبت . . (ينصت ثانية ثم يضيف) حذاؤه الثقيل . . نفس الحذاء . . نفس الدبيب . . لا بد وانه يقترب من البيت . . انه ينظر الى النافذة . . نظراته تخترق الجدار ! كلا . . بل هو قطيع من الاحذية . .

الاحذية الثقيلة المفزعة . القطيع يزحف نحو البيت ! (صوت الريح بوضوح . . صارخاً بغضب) ليوقف هؤلاء الاوغاد زحفهم المقيت . . ليسكتوا مطارق احذيتهم . ليخرسوا هذه الطبول البربرية . . هذا الهتاف البشع على دروب المشانق ! (يصمت . . الريح بهدوء . ثم باستغراب) انهم يبتعدون . . يبتعدون . . (بخوف) نفس الليلة . . نفس الريح . . نفس الجنون ! كنت ثملا حين رجعت الى البيت لقد شربت طول الليل دونما انقطاع ! (بيأس) وجدتها تنتحب . . كانت تضم ذلك الكلب اللعين اليها . . كنت متعباً . . وفي أمس الحاجة اليها . . كنت اود لو اعانقها . . على صدرها الدافىء انتحب ! كان كلانا يحترق بعذابه للآخر ، كان كلانا ينصهر في جحيم الثأر المتأجج في صدره . وددت لو ينسى كلانا ما بيننا . . لعنة الانتقام . لعنة هيرا ، التي لا تزال تجري في دمائنا ! ان نبدأ حياتنا من جديد . . ولكنها . . (بغضب) ولكنها لم تعطني الفرصة لذلك الجنون بعينه ! أقصتني بعيداً عنها . . صرخت كالمجنونة في وجهي كما . . كما لو كنت وحشاً ضارياً ! انه الحقد . . ذلك الحقد الاسود ، والذي كان يأكل قلبها . . تلك النمرة الشرسة ! (بثورة) لقد فقدت عقلي عندها . . انقضضت عليها . . قبضت بكل ما تملكه يداي من قوة ، ورغبة في الانتقام . . على عنق ذلك الكلب المقيت . . كانت تقاوم . . النمرة الحقود تقاوم . . تنشب مخالبها المفترسة في عنقي . . الا انني لم اتركه . . زهقت روحه على صدرها . . بين ذراعيها ! (باعياء) لم أفكر أبداً في قتلها هي ! لم افكر مرة في ذلك ! كنت اريدها تتعذب وتتألم بقدر ما أحببتها ! الا انها . . هذه الشقية ! اندفعت كالمجنونة الى الخارج تصرخ بأعلى صوتها ! لقد جن . . سامي جن . . انه يريد قتلي ! يريد قتلي ! يريد قتلي ! (بهستيريا) الشقية . . انا مجنون ! مدرس الأدب . . مدرس التاريخ . . مجنون ! اندفعت خلفها . . (يتوقف فجأة . ينصت الى صوت الريح ملتفتاً ناحية الباب بفزع) الاحذية المتوحشة . . يا للعنة . . انهم يتقدمون ! انهم يعودون ! (بجنون نحو النافذة . يزيح الستار ناظراً الى الخارج) يا للشيطان ! انه هو نفسه ! ذو القبعة السوداء ! انه يتوقف . . ينظر الى النافذة . . نظراته المتوقدة . . لا شك انه رآني ، حين كنت أدفن جثتها عميقاً ! خشية تلك الريح المسعورة ! (متراجعاً بخوف) هذه الريح اللعينة . . كادت تحملها مع الرمال . .

يا للرهبة . . لم يبق منها سرطان البحر شيئاً ! تانك العينان ! ذلك الفم الجميل ! اوه . . يا لبشاعة الاشياء . . قطيع من سرطان البحر ! ؟ كانت مجرد هيكل عظمي ! رمة متآكلة . . كيف حدث ذلك ! كيف ! ؟ وبمثل هذه السرعة ! (بغضب) هذه الريح المقيتة انى أتت ! ؟ (يعود الى النافذة ثانية . يزيح الستار ناظراً الى الخارج بغضب) انه لا يبرح مكانه ! عيناه المتوقدتان . . (يفتح النافذة بثورة) ما الذي تريده ايها الذئب ؟ ها . . ايها الثور الهائج ! انني لا أخشاك . . لا ! لا ارهب نظراتك هذه الخبيثة . . لم أرد قتلها . . انك تعرف ذلك جيداً ! ابداً لم افكر في ذلك . . انه ذلك الوقح كلبها ما اردت قتله ! انها فعلت ذلك بنفسها ! لقد فرت من البيت . . كانت كالمجنونة تجري ناحية الشاطىء . . كانت تريد الانتحار ولا شك ! انني . . انني لم . . لقد حاولت ارجاعها فقط . . ردها عن ذلك الجنون ! ولكنها أبت ! (بهستيريا) لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تأتي الي ! ؟ لماذا تقف كالصنم هكذا ! ؟ ها . . ؟ لماذا لا تقول انك رأيتني ، أدفنها في جوف الرمل عميقاً . . عميقاً ! ؟ فانني لا اخافك . . هل تسمع ؟ لا أرهبك ! لقد فقدت كل شيء . . انها هناك ايها الذئب . . هناك على الشاطىء . . كتمت انفاسها بيدي هاتين . . هناك . . لا . . بل انتم الذين قتلتموها . . لقد فعلت ذلك بايعاز منكم . . لقد اردت ارجاعها فقط . . كانت تريد الانتحار ! كانت تغرس انيابها المتوحشة في يدي . . اردت انقاذها من ذلك الجنون . . كانت تجري بكل قواها نحو للبحر . . كادت تقذف بنفسها في ليل امواجه الرهيب . . (يندفع نحو الباب بجنون ثم يعود الى النافذة) هناك . . هل تسمع . . فانني لا أخافكم . . (يندفع نحو الباب بجنون يحاول فتحه) لا ارهبكم . . سأتحداكم جميعاً . . سأنتصر عليكم جميعاً . . جميعاً . . وحدي (يخرج) وحدي .

ستار

(انتهت)

منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سلسلة الدراسات :

١ ـ انسحاب اسرائيل من سيناء عام ١٩٥٦–١٩٥٧ (بالانكليزية)
بقلم وليد ابي مرشد
١٤٤ صفحة الثمن ١٠ ل.ل.

٢ ـ البحر الاحمر وخليج العقبة من خلال تطور القانون الدولي (بالفرنسية)
بقلم الدكتور ادمون رباط
٦٥ صفحة الثمن ٤,٥٠ ل.ل.

٣ ـ السيادة العربية على خليج العقبة ومضيق تيران (بالعربية)
بقلم الدكتور صلاح مصطفى الدباغ
١٣٥ صفحة الثمن ٣ ل.ل.

٤ ـ الصراع العربي الاسرائيلي (بالانكليزية)
بقلم سامي هداوي
٤٨ صفحة الثمن ١ ل.ل.

٥ ـ النواحي القانونية للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٧ (بالفرنسية)
بقلم الدكتور ادمون رباط
٢٥ صفحة الثمن ٠,٥٠ ل.ل.

٦ ــ ابعاد القضية الفلسطينية عام ١٩٦٧ (بالانكليزية والفرنسية)
بقلم هنري كتن
١٥ صفحة الثمن ١ ل.ل.

٧ ــ وعد بلفور (بالانكليزية)
بقلم ج.م. جفريز
٢٠ صفحة الثمن ١,٥٠ ل.ل.

٨ ــ فلسطين . . . لمن ؟ (بالانكليزية والفرنسية)
بقلم هنري كتن
١١ صفحة مع خرائط وجدول
الثمن ١ ل.ل.

٩ ــ تقسيم فلسطين (بالانكليزية والفرنسية)
٧٠ صفحة مع خرائط وجدول
الثمن ٣ ل.ل.

١٠ ــ النازحون : اقتلاع ونفي (بالعربية والانكليزية)
بقلم الدكتور بيتر ضود والدكتور حليم بركات (دراسة اجتماعية علمية)
٦٠ صفحة الثمن ١,٥٠ ل.ل.

١١ ــ مالية اسرائيل (بالفرنسية)
بقلم جورج قرم
٥٠ صفحة الثمن ٣ ل.ل.

١٢ ــ الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (١٩٤٨ــ١٩٦٨) (بالعربية)
بقلم غسان كنفاني
٢٠٢ صفحة الثمن ٥ ل.ل.

١٣ — ١٩٦٧ . . . سويس ثانية ؟ (بالانكليزية)
بقلم ج.هـ. جانسن
(اوجه التواطؤ الدولي في حرب حزيران — يونيو — ٦٧)
٣٦ صفحة الثمن ٣ ل.ل.

١٤ — المسائل القانونية المتعلقة بالوضع القانوني والنشاطات السياسية للمنظمة الصهيونية-الوكالة اليهودية : دراسة في القانون الدولي والقانون الاميركي (بالانكليزية)
بقلم توماس ماليسون (الابن)
٦٠ صفحة الثمن ٣ ل.ل.

١٥ — رسائل عن فلسطين الى مفكري الغرب (بالفرنسية)
بقلم رينه حبشي
٣٠ صفحة الثمن ٣ ل.ل.

١٦ — العرب في اسرائيل (بالانكليزية)
بقلم صبري جريس
١٩٦ صفحة الثمن ١٥ ل.ل.

١٧ — لجنة التوفيق الدولية (بالانكليزية)
بقلم الدكتور فؤاد حمزة
٩٠ صفحة الثمن ٤ ل.ل.

١٨ — القضية الفلسطينية : دراسات ندوة الجزائر حول الموضوعات القانونية (بالانكليزية والعربية)
ترجمة صلاح الدباغ
مراجعة جوزيف مغيزل

سلسلة المقالات المجموعة :

١ ــ فلسطين والتوراة (بالانكليزية)
بقلم الاب ولتز ، والدكتور أ . غيلوم والدكتور أ. برغر
٥٠ صفحة   الثمن ١ ل.ل.

٢ ــ اسرائيل واتفاقيات جنيف (بالانكليزية)
(مجموعة مقالات لمراقبين غربيين)
٦٦ صفحة   الثمن ٣ ل.ل.

سلسلة الوثائق الاساسية :

١ ــ مجموعة قرارات الامم المتحدة الخاصة بفلسطين خلال (١٩٤٧ــ ١٩٦٦) (بالانكليزية)
٢٢٨ صفحة   الثمن ٩ل.ل.

٢ ــ وثائق مقاومة الضفة الغربية للاردن للاحتلال الاسرائيلي، عام ١٩٦٧ (بالعربية والانكليزية)
٦٠ صفحة   الثمن ٣ ل.ل.

٣ ــ اتفاقيات الهدنة العربية ــ الاسرائيلية ، شباط (فبراير) ــ تموز (يوليو) ١٩٤٩ (بالعربية والانكليزية)
(نصوص الامم المتحدة وملحقاتها)
٤٤ صفحة   الثمن ٢ ل.ل.

٤ ــ الحق العربي في حائط المبكى (بالعربية والانكليزية)
١٤٤ صفحة   الثمن ٣ ل.ل. (بالانكليزية   ٤ل.ل.)

٥ ــ تدنيس المقابر المسيحية والممتلكات الكنسية في اسرائيل
(بالانكليزية والفرنسية)
٣٠ صفحة (مصورة)   الثمن ١,٥٠ ل.ل.

٦ — موت وسيط (بالانكليزية)
٩٦ صفحة   الثمن ٣ ل.ل.

سلسلة الوثائق السنوية لقضية فلسطين في الأمم المتحدة :

١ — فلسطين امام الامم المتحدة عام ١٩٦٥ (بالانكليزية)
تحرير سامي هداوي
٣٠٠ صفحة   الثمن ٤,٥٠ ل.ل.

٢ — فلسطين امام الامم المتحدة عام ١٩٦٦ (بالانكليزية)
تحرير سامي هداوي
٩٢٠ صفحة   الثمن ٢٥ ل.ل.

سلسلة الكتب السنوية :

١ — الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ (بالعربية)
بقلم الدكتور منذر عنبتاوي ، وليد ابي مرشد ، الياس غنطوس .
رئيس التحرير برهان الدجاني
٥١٩ صفحة   الثمن ٣٠ ل.ل.

٢ — الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥ (بالعربية)
بقلم الدكتور منذر عنبتاوي ، وليد أبي مرشد ، الياس غنطوس .
رئيس التحرير برهان الدجاني
٧٠٠ صفحة   الثمن ٢٠ ل.ل.

٣ — الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٦ (بالعربية)
بقلم وليد أبي مرشد ، أنطوان بطرس ، جورج ديب ، الياس غنطوس .
رئيس التحرير برهان الدجاني
٦٦٤ صفحة   الثمن ١٠ ل.ل.

سلسلة الوثائق الفلسطينية العربية السنوية :

١ ــ الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٥ (بالعربية)
تحرير الدكتور منذر عنبتاوي
٦٠٠ صفحة   الثمن ٣٠ ل.ل.

٢ ــ الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٦ (بالعربية)
تحرير الدكتور منذر عنبتاوي
٨٠٠ صفحة   الثمن ٢٠ ل.ل.

سلسلة الوثائق العامة :

١ ــ وثائق المقاومة الفلسطينية العربية
ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨-١٩٣٩)
جمع وتصنيف عبد الوهّاب الكيالي
٦٧٧ صفحة   الثمن ٢٥ ل.ل.
تجليد ٣٠ ل.ل.

قدّم المثقفون العرب في الفترة الّتي امتدت بين ١٩٤٨ و ١٩٦٨ ، من خلال أقسى ظروف القمع ، والأسر الثقافي ، نموذجاً تاريخياً للثقافة المقاومة ، بكل ما فيها من وعي وصمود وصلابة ، وأهم من ذلك ، بكل ما فيها من استمرار وتصاعد وعمق .

ويجمل بنا الاشارة الى انه قد روعي في اختيار نماذج هـــذه المجموعة ان تكون من خارج نطاق النماذج الّتي باتت متوفرة الآن ، والّتي ستطبع في مجموعات شعرية منفصلة خلال الفترة الوجيزة القادمة ، كما يجدر بنا الاشارة الى أن هذه الدراسة تميل باطراد نحو الصيغة الوثائقية ، إذا جاز التعبير ، أكثر مما حرصت على الصيغة التحليلية .

الثمن ٥ ل.ل.